العمل الإسلامي لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستوري

في مصر خلال القرن التاسع عشر

تأليف

جمال البنّا



١٩٥ ش الجيش – ١١٢٧١ القاهرة

تليفون ، ٩٣٦٤٩٤

العمل الإسلامي

لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستوري

في مصر خلال القرن التاسع عشر

جمال البنا

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت أقلب فى اوراقى القديمة عندما عثرت على سلسلة من المقالات نشرتها لى مجلة الدعوة فى الفترة ما بين يونيو سنة ١٩٥٢ وأكتوبر من السنة التالية (٥٣) تعالج موضوعا واحدا او متكاملا .

وكانت المجموعة الاولى من هـذه السلسلة اربع مقالات بعنوان « كفاح الحركات الاسلامية فى سبيل القومية المصرية » ابرزت فيها عمل شيوخ القاهرة لارساء سيادة الشعب فى مواجهة حكم المماليك ومحمد على .. ويتلو هذه المجموعة الاولى مجموعة ثانية تضم مقالين عن « جمال الدين الافغانى » تشيران الى مقال سابق عليهما وعن جمال الدين الافغانى نفسه ، ولم اجده فى الاوراق وأريد بهما أبراز دور جمال الافغانى فى تكوين « نخبة » مثقفة من جمهور الشعب مسلحة بوعى اسلامى ثورى يمكن أن يقف فى مواجهة النفوذ الاوروبى الذى كان قد تسرب الى المجتمع المصرى وهيمن على السياسة المصرية ، ويطالب بالدستور والحكم النيابى . وقد كان من أثر هـذا العمل الذى استمر لثمان سنوات متوالية أن ظهرت نهضة فكرية . ومطالبة الخديوى اسماعيل أولا ثم توفيق بتكوين مجلس شورى . ومن المؤسف أن انتهت الجولة بالثورة العرابية والاحتلال البريطانى وتلى هذه المجموعة الثانية مجموعة ثالثة من خمس مقالات بعنوان « قصة الدستور المصرى » تعرض أثر تدهور نفوذ

العمل الاسلامى . وكيف انفسح المجال للبورجوازية المصرية التى بدأت فى وضع أول المجالس الشورية التمثيلية فى مصر ، ويبدو انها كانت سبع مقالات ...

ورأيت أن هذه السلسلة من المقالات يمكن أن تمثل اضافة من ناحيتين : **الأولى** انها تعرف قارىء اليوم بصفحة مجيدة من تاريخ مصر كادت أن تنسى وسط الاصوات الزاعقة ، والدعايات الصارخة والتطورات الكاسحة والمصالح المكتسبة والحقوق المرتهنة حتى لم يدع الحاضر للماضى شيئا ، وشغل الناس بهموم اليوم عن وقائع الامس . ومن الخير أن يتعرف هذا الجيل على اجياله السابقين ، وأن يحتفظ برباط بين حاضره وماضيه ، وأن يستفيد من تجربة السابقين ، ففيها دروس ثمينة . وفيها ما يبعث على الفخر آونة .. وعلى الاسى آونة أخرى . والأمم بعد — لا تعيش فى فراغ — ولا تقوم على هواء .. وبقدر ما يكون تعرفها على ماضيها وارتباطها بتاريخها بقدر ما يكون تكامل شخصيتها ، وبروز « هويتها » ..

وفى الصفحات التى يتضمنها هذا الكتاب على ايجازه ما يوضح للجيل كيف أن الشيوخ اثبتوا وجود الشعب فى اشد الفترات سوادا وحلكة ، وكيف انهم تصدوا لنابليون ، وكليبر ومحمد على واسماعيل باشا وتوفيق باشا وكيف أن دعاة الوطنية المصرية كسبوا دستور ١٨٧٩ دون أن يصدر به مرسوم ، ودون أن يكون « هبة » من الحاكم — كما قد يفهم من مقدمة دستور ٢٣ — بهذه أمجاد يفوق ما تقدمه الدعايات والزيوف الاعلامية من

« انجـازات » مدعاة — فيما تلا ذلك من عهـود — حتى الفترة المعاصرة .

والناحية الثانية ، أن هذه المقالات تبرز دور العمل الاسلامى فى ارسـاء سيادة الشـعب . وكيف كان الشيوخ هم صـوت الشعب ، وكيف استطاعوا أن يخلعوا آخر الولاة الترك ويولوا محمـد على على أساس أن يحكم بالعـدل والشرع .. **وان هذه الواقعة تمثل لنا أكثر تجارب الشعب المصرى رشدا ووعيا لارساء حكمه ، والتعبير عن ارادته** ، سـواء كان ذلك بالنسبة لقـيادة طبيعيين ارتضـاهم من كل قلبه ، او بالنسبة للهدف وهو الحكم بالشرع الذى يمكن أن تتسـع مظلته للجميع . ولكل المطـالب المشروعة ..

ومقارنة هذه المحاولة التى أنجزها بالفعل شيوخ القاهرة وأجهضها استبداد محمد على ثم أعادها جمال الأفغانى جذعة لتصطدم بالاحتلال البريطانى — نقول ان مقارنة هذين بما تلا ذلك — عندما أخذت البورجوازية — وليس الاسلام — زمام المبادأة فوضعت أسس أول مجلس نيابى مصرى يحمل حسنات وسوءات البورجوازية .. ان المقـارنة تبرز أفضلية المحاولة الاولى لانهـا استهدفت سيادة الشعب ممثلة فى حكم القانون الذى ارتضاه (الشرع) بينما استهدفت الثانية حكم الطبقة مسلحة بالحريات التى ترخى لها العنان ، وتكفل لها السبق ، فتتجاوز جمهور الشعب الذى ينوء بأثقاله وهمومه ..

لهذا رأيت أن أعيد طبع هذه المقالات على ما كانت عليـه عندما نشرتها مجلة الدعوة بدء من ١٠ يونيو سنة ١٩٥٢ حتى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٣ ، ولم أضف جـديدا باستثناء مقال بدل

المقال المفقود عن جمال الدين الافغانى ، وقد أقتبسته تقريبا من كتابى « الدعوات الاسلامية المعاصرة . ما لها وما عليها » الذى صدر سنة ١٩٧٨ وكذلك مقالين عن الدستور بعد أن يأست من العثور على أصولها لأن معظم دوريات الاخوان المسلمين قد ابيدت او ابعدت من دار الكتب ، كما وضعته عناوين لم تكن فى المقالات التى كانت تنشر كمقالات فى مجلة وليس كفصول فى كتاب .

ولو استقبلت من امرى ما استدبرت لكان من المحتمل ان اعيد النظر فى هذه المقالات بما يجعلها أكثر تحقيقا وتفصيلا ، ولكن لم يعد هنــاك وقت ! وهى كما كتبت منــذ أربعين عاما تعطى الانطباع المطلوب دون أن تكون عســيرة الهضم ، كبيرة الحجم ، باهظة الثمن .

ان المجتمع المصرى قد شغل هذه الايام بقضية تطرف بعض الأحاد وسوء فهمهم للاسلام بصورة كادت ان تجعل الفكرة عن الاسلام مركزة فى هذا الجانب الشاذ وهذا تحيف سيىء يخل بمعايير الحق والعدالة ويستتبع آثارا وخيمة على المجتمع بأسره. ولعل هــذا الكتاب أن يبرز جانبا من جوانب العمل الاســلامى يستكمل نقصا ويصحح خاطئا .. ويبرز العلاقة الوثيقــة بين العمل الاســلامى وبين سـيادة الشعب ـ وحكم العدل ــ وهو الهدف الحقيقى للجماهير والشعوب .

جمادى الاولى ١٤١٢
نوفمبر ١٩٩١

جمـال البنـا

الباب الأول

شيوخ القاهرة يرسون سيادة الشعب

فى هذا الباب نرى الشعب يلوذ بشيوخ القاهرة لوضـع حـد لمظـالم المماليك ، ونرى الشـيوخ يقومون بهـذا الدور ، ويكبحون جمـاحهم ، حتى تأتى الحملة الفرنسـية ، وتضع نهاية لحكم المماليك فيتولى الشـيوخ قيادة الثورة على نابليون وكليبر حتى تطوى صفحة الحملة الفرنسية لتبـدا صفحة اخرى يظهر فيها الشـيوخ قادة طبيعيين للشـعب يخلعون آخر ولاة الخليفة العثمانى المعتصم فى القلعة ويولون محمد على الذى تقرب الى الشعب ، وتعهد الشيوخ بالحكم بالعـدل والشريعـة ، فالبسـه الشـيخ الشرقاوى والسـيد عمر مكرم خلعـة الولايـة بعـد أن تعهد بالحكم طبقا للشريعـة والشـورى ((وانه متى خالف الشروط عزلوه)) .

وللاسف فان محمد على لم يف بالعهـد واستطاع بعد فترة أن ينكل بالشـيوخ وأن يسـتبد بالأمة ، وأن يوجه سياسة الحـكم — لأول مرة — بعيدا عن الشعب والشرع ..

وقد كان العنوان الأصلى لهـذه المقالات الذى نشرت به فى مجـلة الدعوة ((كفـاح الحركات الاسلامية فى سبيل القومية المصرية)) .. ونشرت الاولى فى العدد الصادر فى ١٠ يونيو ٥٢ (١٧ رمضان ١٣٧١) والثانية فى ١٨ يونيو — ٢٥ رمضان . والثالثة فى ٢٤ يونيو — غرة شوال . والرابعة اول يوليو — ٩ شـوال .

ـ ١ ـ

كانت مصر فى آخر القرن الثامن عشر سادرة فى ظلمات القرون الوسطى تتعاورها الاحداث الداخلية فلا تجاوز حدودها القريبة ولا تعدو أن تكون فتنة بين بك وآخر او احتفالا بتولية وال جديد أو ثورة لعزله .. فاذا أقبل الليل وأذن العشاء أقفلت ابواب الحوارى وسكنت الاصوات وآوى الناس الى بيوتهم يسمرون فيها ويفرغون الى آلهم بعد ان شغلهم العمل طيلة النهار .

أما العالم الخارجى فقد تقطعت الصلات بينه وبينهم الا النذر القليل الذى يأتى لطائفة من الاجانب على السفن الشراعية أو مع الرسل الذين يرسلهم المماليك أو الوالى الى القسطنطينية فيقطعون الوهاد والقفار على صهوات الخيل .. وفى عربات البريد ...

وما كان لغير المطلع على شئون العالم الخارجية أن يتنبأ أن حدثا هائلا سيلحق هذه البلاد .. وان غازيا فرنسيا سيأتى فيدك بمدافعه هذا العهد .. ويختم القرون الوسطى ويبدأ العهد الجديد لمصر .. وان كان الباحث لا يعجز أن يدرك أن حياة جديدة كانت تتبلور فى أعماق الشعب وتتكون شيئا فشيئا وتكتسب قسماتها من الاحداث والملابسات ...

ذلك أن عسف الترك والمماليك ــ على ضعفهم السياسى ــ قد أيقظ فى الشعب عوامل المقاومة ومكنه من أن يتحرك ..

ويبدى ارادته .. فلم يجد سوى الاسلام يستلهمه وسائل الانقاذ والتحرر وسوى « المشـــايخ » يتخذهم زعماء يدين لهم بالحب والتقدير والاحترام .

وكان هؤلاء المشايخ يكونون طبقة من الزعماء نادرة المثال فى اتساقها مع المجموع وحدبها عليه وفهمها لحاجاته ونفسيته ... ورعايتها لمصلحته فضـــلا عن تقلدها للرئاســـة الدينية وتحليها بالعلوم والآداب ، فبرز المشايخ وارتفع قدرهم وأصبحوا يقومون بدور الوساطة بين الشعب وحكامه وهو الدور الذى سيؤهلهم ، فى الخطوة التالية للزعامة الشعبية ، والرئاسة الوطنية ، وتعيين الحكام باسم الشـــعب ... ولمعت اسماء الســـادات والفيومى والشرقاوى ، والمهدى فضلا عن عمر مكرم « نقيب الاشراف » .

وقد سجل لنا الجبرتى صورا وصفية تمثل حياة هذا العهد وسيرة هؤلاء الشيوخ ، ودورهم فى الحياة العامة ، فهو يقول عن الشيخ سليمان الفيومى :

« اتفق له مرارا أن يركب من الصـــباح فى حوائج الناس فلا يعود الا بعد العشاء الاخرة ، فيلاقيه آخر ذو حاجة فى نصف الليل أو آخره فينهى اليه قصته اما بشفاعة عند أمير أو خلاص مسجون أو غير ذلك فيقف وهو راكب فيقول له « فى غد نذهب اليه فان الوقت صار ليلا » ... فيقول له صاحب الحاجة انه فى داره فى هذا الوقت فيعود من طريقه مع صاحب الحاجة الى ذلك الأمير ولو بعدت داره ، ويقضى حاجته ويعود بعد حصة من الليل ... وهكذا كان شأنه ولا ينتظر فمالت اليه القلوب ، ووفد اليه ذوو الحاجات من كل جانب فلا يرد أحـــدا ويستقبلهم بالبشاشة وينزلهم فى داره ويطعمهم ويكرمهم ويستمرون فى ضيافته حتى

يقضى حوائجهم ويزودهم ويرجعون الى أوطانهم مسرورين ومجبورين شاكرين » .

ويقول عبد الرحمن الرافعى بك فى ترجمته للشيخ السادات: « كان جريئا فى الحق لا يهاب من بيدهم سلطة الحكم وبحسبك أن تتأمل فى موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى فى سنة ١٧٨٦ الى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة لتحكم على مبلغ ما اتصف به من الشهامة والمروءة فقد اسرف حسن باشا فى القسوة والجبروت واستباح أموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بانزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعما انهم ارقاء لبيت المال فاجتمع الشيوخ والعلماء وذهبوا اليه معترضين ، وكان السيد محمد السادات هو المتكلم عنهم فاشتد فى مخاطبته وقال : « **أانت أتيت الى هذا البلد أو أرسلك السلطان لاقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لتبيع الاحرار وامهات الاولاد ، وهتك الحرمات** » فقال حسن باشا هؤلاء أرقاء لبيت المال فقال له هذا لا يجوز ولم يقل به أحد .. فحنق حسن باشا على السادات والمشايخ وتهددهم بأن يبلغ السلطان معارضتهم لاوامره ... فلم يعبأ السادات بتهديده وأصر على معارضته حتى أفحمه وحمله على العدول عن قصده » .

وكان ابراهيم بك — كبير المماليك — قد هرب وأودع عند الشيخ السادات ودائع ثمينة ، فطلبها حسن باشا فرفض السادات قائلا : أن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بذلك فلا اسلمها مادام صاحبها على قيد الحياة » .

وعندما تنكر وال آخر — خورشيد باشا — لنساء المماليك واعتقل السيدة نفيسة المرادية ، ركب المشايخ وتحدث الشيخ

سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى وغضب الشيخ محمد الامير وقال لخورشيد باشا : ان هذا امر غير مناسب ، ويترتب عليه مفاسد ويقع اللوم علينا ، فاذا كان الامر كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا .. أو نخرج من هذا البلد .. فانتهى الامر باطلاق سراح السيدة نفيسة . وانزلوها من القلعة الى بيت الشيخ السادات .

ولا يظن القارىء أن هذه الفعال من المشايخ كانت دفاعا عن المماليك وسياستهم .. انها من أعمال المروءة والشهامة التى توضح نبل نفوسهم ، وارتفاع كلمتهم ... وطالما قرعوا المماليك بأشد مما قرعوا ولاة الترك .. واعترضوا عليهم ، فهذا الشيخ السادات يوبخ المماليك غداة قدوم نابليون ويقول لمراد بك وزملائه « ان كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم .. وآخر امرنا معكم أنكم ملكتمونا للافرنج » .. وخص مراد بك بقوله : خصوصا بأفعالك وتعديك انت وأمرائك على متاجرهم وإخذ بضائعهم .

وقد ثار أهل الشرقية سنة ١٢٠٩ هجرية — أى قبيل مجىء الحملة الفرنسية — بعدة سنوات لظلم المماليك وجاءوا للشيخ الشرقاوى فغضب لهم وخاطب مراد بك وابراهيم بك فلم يفعلا شيئا فجمع المشايخ فى الازهر واقفلوا أبوابه .. واغلقت تبعا لذلك الاسواق وتجمهر الناس ، فأرسل ابراهيم بك اليهم دفتردار — مدير الشئون المالية — فسألهم عن مرادهم فقالوا : نريد العدل وابطال الحوادث والمكوس التى ابتدعتموها فقال : لا يمكن اجابة هذا كله فانا ان فعلنا ضاقت علينا المعايش .

فقالوا : ليس هذا بعذر عند الله ، وما الباعث على الاكثار من النفقات والمماليك .. والامير يكون اميرا بالاعطاء لا بالاخذ

وقد اقتضى أصلاح هذا الموضوع ثلاثة ايام تبودلت الرسائل وانتهى فى اليوم الثالث باجتماع المشايخ فى بيت ابراهيم بك وانعقد الصلح على رفع المظالم ما عدا ديوان بولاق ، وان يكفوا اتباعهم عن مد أيديهم الى أموال الناس ويسيرو فيهم سيرة حسنة.

وكتب القاضى حجة بذلك « وفرمن عليها » — أى وقع عليها الباشا والامراء وانجلت الفتنة وفرح الناس وسكن الحال . .

وبعض الناس يضائل من الدور الذى قام به هؤلاء العلماء الذين لم يكن لهم سلطة رسمية ولا صفة نيابية ولا يستندون الى دستور محدد ، والحقيقة غير ذلك ، فلم يكن ينتقص من قيمة عملهم أن لا يكون هناك دستور مكتوب . . ونحن نعلم أن أعرق الدساتير — الدستور الانجليزى — غير مكتوب وانه نشأ من مثل هذه الحركات التى اعتبرت سوابق محترمة ، ولم يكن ليضير المشايخ أن يبرزوا الى مقاعد الصدارة دون انغماس فى مهزلة الانتخابات . . ونحن لا نجهل مدى التزييف والعوامل المصطنعة التى تحيق بها وتؤثر عليها . ولا ينال من عملهم انه كان ارتجاليا خاضعا للظروف غير موضح بقانون ، فقد كان الشعب وراءهم يدفعهم عندما يريد ويحملهم على العمل المناسب وكان لهم فى فراستهم وضميرهم الدينى خير ما يلهمهم الصواب ويجنبهم الزلل ويجعل التجاوب بينهم وبين الشعب على أتمه وأصدقه .

والواقع أنه ليس من الصواب فى شىء أن نقلل من قيمة هذه المحاولات للنقص الشكلى أو عدم توفر المظهر الرسمى المحدد لها على ما ألف الناس الآن ، لأن مثل هذه الحركات هى أصول الدساتير — كما يلحظ ذلك كل متتبع لنشوء البرلمان فى انجلترا — وقد كان الشيخ السادات يضع لبنة فى بناء الدستور عندما

يجابه الحاكم الاعلى بكلمات الظلم ويذكره العدل .. ويرد عليه قراره الجائر ، كما كان الشيخ الامير يذكر المماليك بصفتهم الشعبية ومسئوليتهم عن الحكم امام الناس ويهدد بما يشبه العصيان المدنى عندما يقول لخورشيد فى الحادثة التى سبق ذكرها « واللوم يقع علينا ... فاذا كان الامر كذلك فلا علاقة لنا بشىء من هذا أو نخرج من هذا البلد .. » وما كان خورشيد ، أو أعظم منه ليصمد أمام هذا التهديد كما كان الشيخ الشرقاوى يجرى خطة لم نصل اليها فى دستورنا الحديث — الذى يعد هبة من الحاكم — عندما كان ينتزع من الحاكم الحقوق انتزاعا تحت ضغط المظاهرات والتجمهر .. ويثبت ذلك فى وثيقة يكتبها القاضى ، يوقعها شهود عدول .. فهل كانت (الماجنا كارتا) او (وثيقة الحقوق) اكبر من ذلك ؟! (١) .

---

(١) نشرت فى العدد الصادر فى ١٠ يونيو ١٩٥٢ (١٧ رمضان ١٣٧١) من مجلة الدعوة ص ١٢ تحت عنوان كفاح الحركات الاسلامية فى سبيل القومية المصرية .

ـ ٢ ـ

عندما انهزم المماليك أمام الفرنسيين فى معركة الاهرام ، حكمت الملابسات المؤقتة على المشايخ بأن يقوموا بنوع من الوساطة بين الشعب ، وبين المحتل الجديد . لأن القوة الحربية الوحيدة ـ قوة المماليك ـ قد أفلت ، ولأن القوة الحربية المنتظرة ـ قوة الشعب لم تكن قد استعدت .. لذلك أرغم الشيوخ على وضعية المفاوضة مع نابليون ، وان كنا نلحظ أن كبار المشايخ قد انفوا من ذلك ، ولزموا دورهم ، أو غادروا المدينة .. وعندما ذهب الشيخ مصطفى الصاوى .. والشيخ سليمان الفيومى الى معسكر الجيزة وقابلا نابليون ... سألهم هذا « هل انتم كبار المشايخ ؟ » فأجابوه أن المشايخ الكبار قد غادروا المدينة .. فأرسل من يستدعيهم ..

ولكن دور الوساطة بين الشعب والمحتل كان مخالفا لطبيعة تمثيلهم للشعب ، وايمانهم بعقيدة اسلامية توجب الجهاد .. لذلك ما أن سنحت الفرصة للثورة على الفرنسيين حتى أشعلها الشيوخ شعواء جائحة ... ومرتين لا مرة واحدة .

الثـورة الاولى ..

كانت الثورة الاولى بعد ثلاثة اشهر من بدء الغزو (١ اكتوبر سنة ١٧٩٨) وكانت موجهة ضد نابليون العظيم . واستمرت ثلاثة أيام .. تحصن فيها بالجامع الأزهر خمسة عشر الفا من الثوار واقاموا المتاريس فى الطرق والازقة الموصلة اليه. وقتل الجنرال ديبوى قومندان القاهرة والكولونيل سلكوسكى ياور نابليون ، وضربت المدينة من المدافع حتى الليل . وكان هدفهما

الجامع الازهر . وقدر القتلى بحوالى الفين من الثوار . وأوصلتهم بعض التقديرات الى اربعة آلاف . وارتكب الفرنسيون الفظائع المنكرة . قال موسيو ريبو « أوشك الجامع الازهر ان يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه .. وأصبح الحى المجاور للازهر صورة من الخراب والتدمير . فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ودور محترقة . وماتت تحت الانقاض آلاف من السكان الآمنين ، وكانت الجهات القريبة من الازهر ولا سيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة » .

وقتل من الفرنسيين ملئتان ..

الثورة الثانية

أما الثورة الثانية فكانت اشد هولا واستمرت من ٢١ مارس سنة ١٨٠٠ حتى ٢١ ابريل سنة ١٨٠٠ وبلغت جموع الثائرين حوالى خمسين الفا . قال عبد الرحمن بك الرافعى عنهم : « واتوا فى هذا السبيل من الاعمال ما أدهش الفرنسيين، فقد انشأوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد اغا بالخرنفش وانشأوا معملا لاصلاح الاسلحة والمدافع ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصناع للعمل به ، وقدموا ما اديهم من الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب » .

وقد دمرت بولاق تدميرا . قال الموسيو جالان وهو شاهد عيان . ومن مؤرخى الحملة الفرنسية : « فى اليوم الحادى

والعشرين من جرمينال (١٤ ابريل سنة ١٨٠٠) انذرت بولاق بالتسليم . فرفض أهلها كل انذار .. وأجابوا بأباء وكبرياء انهم يتبعون مصير القاهرة فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليهم من المدافع ضربا شديدا أملا منه فى اجبار الاهالى على التسليم ، ولكنهم أجابوا بضرب النار فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس .. وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا اكثرها وظل بعضها يقاوم واستبسل الاهلون فى الدفاع والجئوا الى البيوت فأتخذوها حصونا يمتنعون بها فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منها والتغلب عليها بقوة الحديد والنار ، وبلغ القوم فى شدة الدفاع حدا لا مزيد بعده . وفى هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوه واستمر القتال فجعلنا المدينة خرابا وأسلمناها للنهب وصار اهلها عبرة لبطش الجنود وتنكيلهم فجرت الدماء أنهارا فى الشوارع واشتعلت النار فى احياء بولاق من اقصاها الى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفا للخراب ، وأكلتها أهوال الحروب وفظائعها » .

وكذلك أحرقت النار خط الازبكية والفوالة والرويعى وبركة الرطل وباب البحر والعدوى وباب الشعرية لأن الفرنسيين لم يستطيعوا الاستيلاء على القاهرة الا باضرام النار فى هذه الاحياء المحتشدة بالسكان !

قيادة الثورتين

وقدقاد هاتين الثورتين الشيوخ والعلماء ، قال نابليون فى مذكراته عن الثورة الاولى أن الشعب انتخب ديوانا للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الاسلحة المخبوءة ، وأن

الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا الديوان ، كما ذكر فى تقريره الى حكومة الديركتوار ان لجنة الثورة كانت تنعقد بالازهر ...

وعندما قمعت الثورة كان انتقام الفرنسيين موجها للمشايخ بصفة خاصة قال نابليون فى مذكراته : أن رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من اعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة واثبتت **ادانتهم فاصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ اكتوبر قرارا باعدامهم جميعا ونفذ فيهم الحكم .**

وقد فضل نابليون أن لا يمس الشيخ السادات رغم تأكده من انه المحرض على هذه الثورة لأن الضرر من قتله اكثر من نفعه ، واعتبر خمسة من شيوخ الازهر زعماء رسميين لهذه الثورة ، وحوكموا ، واعدموا .. وهم الشيخ اسماعيل البداوى والشيخ يوسف الصيحى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) والشيخ احمد الشرقاوى .

اما الثورة الثانية فقد تزعمها السيد عمر مكرم — نقيب الاشراف — والشيخ الجوهرى والسيد السادات ، الذى فرضت عليه غرامة قدرها ١٥٠ الف ريال كما فرض على كل من الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ محمد الجوهرى واخيه الشيخ فتوح غرامة قدرها خمسين الف ريال ، واهين الشيخ السادات اهانة كبرى قال الجبرتى « .. ثم حبسوه فى حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا فى الصباح ومثلها فى المساء وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها » وقد أشار نابليون الى ذلك فى مذكراته فقال « أن السادات قد

خص بغرامة فادحة وكان معروفا عنــه كرهه للفرنســيين على انهم اسرفوا فى اهانته لدرجة انهم نســوا مقامه المســتمد من نسبه ومولده . فقد رفض ان يدفع الغرامة فاعتقل وســجن بالقلعة وأمر كليبر بضربه بالعصا وهكذا ضرب السادات واهينت السلالة النبوية فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب » وكانت هــذه المعاملة على نقيض معــاملة نابليــون للســادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد نالة بالعفو والتسامح مع قيام البينات عليه بانه زعيم الثورة .

اثر الوازع الاسلامى ...

ان هاتين الثورتين وان انبعثتا عن اصدق نوازع القومية والوطنيــة فانهما لم يجــدا فلسفتهما الثورية الا فى الاســلام لذلك استلهمتاه . فاتخذتا من المساجد قلاعا وحصونا ومن المآذن نداء ونفيرا قال دى لاجونكيير ، وهو شاهد عيان عن الثورة الاولى « كانت الدعوة الى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين فيدعون الى الله .. والى الثورة على المآذن صباح مساء واتخذت من المشايخ قادة وضباطا .. ومن آيات الجهاد اناشــيد تشــعل الحماسة وتبث الشجاعة » .

وانك لتلمس الصفة الاســلامية فى كل الحركات القومية فى هذا العصر .. منذ ان ارسل السيد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى يستغيث من عمارة نابليون ويقول « ان العمارة التى حضرت هــذا اليوم مراكب عــديدة ما لهــا اول يعرف ولا آخر **فبالله ورسوله** ادركونا بالرجال » الى أن قال اعضاء الديوان « المشايخ » فى الجلسة الختامية التى تقرر فيها جلاء الجيش الفرنسى « **ان الامر لله .. والملك لله .. وهو الذى إمكن فيــه**

من يشــاء » . كما تلمســها فى كل شخص كان له نصـيب فى القيادة فالمشايخ صفتهم الدينية معلومة والسيد عمر مكرم .. نقيب الاشراف .. حتى زعماء العامة كانت لهم صفتهم الدينية .. فأغلب الظن أن زهو الحاج مصطفى البشتيلى قائد ثورة بولاق بانه « حاج » لا يقل عن زهوه بانه ابن بلد .. أو زعيم أبنـاء البـلد ....

نظرة ... الى الوراء ...

ان من يدرس هاتين الثــورتين .. حتى بالايجــاز الذى أوردناه .. ويلحظ الملابسات التى قامت فيها ثم يقارن هذا كله بحالنا الراهنة ليعجب كل العجب .. فلم يكن شعب مصر فى عهــد هاتين الثــورتين ليبلغ مليونين . ولم يكن له جيش .. ولا عنده سلاح .. ولا له خبرة بأى نوع من أنواع القتال . وكان مع ذلك يحارب جبابرة الحرب . وعباقرة القتــال ... نابليــون .. واركان حربه .. وكليبر .. ومع ذلك لم يستسلم لاكثر من ثلاثة شــهور ! واســتطاع فى ثورته الاولى — على صورتها البدائية — أن يجشم الفرنسيين خسارة مائتى رجــل منهم جنرال وكولونيل ... واستطاع أن يصمد أكثر من شــهر أمام كليبر القاسى .. وان يؤثر الموت .. والحريق على الامان وتحمل بشــهامة الغرامة الحربيــة الفادحة التى وزعت عليه ابتداء من كبار المشايخ « حتى الحواة والقرداتية » كما يقول الجبرتى :

اذا لاحظنا ذلك كله .. وقارناه بالحركات السياسية التى جاءت بعد ذلك وتذكرنا السبعين عاما من الاحتــلال الانجليزى الجاثم .. تعجبنا لقوة الاولى وهزال الثانية فثورة سنة ١٩١٩

لا يمكن ان تقاس باحدى هاتين الثورتين .. وهى اكبر الثورات فى مصر الحديثة .

ومهما تكن أسباب قوة الاولى .. وضعف الثانية . فما من شك فى ان استلهام الاولى للعقيدة الاسلامية ... واغفال الثانية لها .. كان من أسباب قوة الاولى .. وضعف الثانية .. اذ أن اقتران الثورتين بالمعانى الدينية زادهما قوة ، واكسبهما طابعا من التضحية والايمان أشد عمقا وابعد غورا . واغزر معينا من الطابع الوطنى المجرد الذى لم يكن قد وجد اسمه او استكمل فلسفته .. أو تمثل فى اذهان الشعب سويا (١) .

(١) نشرت فى العدد الصادر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٢ (٢٥ رمضان ١٣٧١) من مجلة الدعوة (ص ٢) تحت عنوان « كفاح الحركات الاسلامية فى سبيل القومية المصرية » .

- ٣ -

ما كاد الفرنسيون يجلون عن البلاد بعد اقامة لم تزد على ثلاث سنوات عانوا فيها الويل من المقاومة الشعبية فى كل شبر حتى ظهرت قوى ثلاثة اخذت تتناحر فيما بينها حتى تظفر بالصدارة فى المسرح الذى كان شاغرا منذ جلاء الفرنسيين ..

أولى هذه القوى المماليك ، الذين عادوا من مخابئهم ، بعد أن تفرقوا أمام الفرنسيين . وتركوا الشعب يلقى مصيره .. فالآن لما غادر الفرنسيون البلاد عادوا معتقدين أن البلاد بلادهم .. ومادام المحتل الدخيل ، قد غادرها .. فمن الطبيعى أن تعود اليهم مقاليد الامور ..!

وثانية هذه القوى الترك ولم ير الاتراك فى هذه الاحداث كلها سوى فرصة لتثبيت اقدامهم وانتزاع الامر من المماليك الذين استبدوا به قبل الحملة الفرنسية ، وكان الجيش التركى الذى قدم من سوريا بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضياء يحتل القاهرة ومعظم بلاد مصر الوسطى .. كما كان هناك جيش حسين قبطان باشا قومندان العمارة العثمانية الراسية فى خليج ابى قير .. كما أخذ المندوب التركى فى فرض الضرائب ، واحتكار جميع الواردات وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله « وكان أول قادم منهم (الترك) امير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم !! » .

وثالثة هـــذه القوى « الانجليز » وكانت انجلترا تريد ان تقتنص هذه الفرصة الاستعمارية ، بعد أن كادت تفلت من يدها باحتلال الفرنسيين ، فعقدت العزم على عمل طويل . فشاركت الاتراك حرب الفرنسيين . واستطاعت بذلك أن تحتل الاسكندرية ورشيد ودمنهور كما توصلت الى أن تضيف بملحق معاهدة التحالف مع تركيا شرطا هو « ان الجيش الانجليزى لا يجاو عن مصر بعد استتباب الامن فى ربوعها ! » ...

كانت كل قوة من هذه القوى تظن ان الظفر بالحكم سيكون نصيبها ، وتعمل فى الخفاء ضد القوى الاخرى . ولكن الله كان يريد للبلاد التحرر منها جميعا ، وأن يكون المستقبل من نصيب قوة جديدة .. هى الشعب المصرى .

الشـــعب يتحرك

وبدأ الصراع بين هذه القوى وبعضها بحرب الترك للمماليك فى مواقع متعددة لم تكن احداها حاسمة .. ثم انسحب الانجليز من الميدان بجلائهم عن الاسكندرية وأن كانوا قد أخذوا معهم الالفى بك جريا على عادتهم فى اصطناع الاصدقاء الكبار ... فتحالف المماليك مع الترك للحكم معا ضد الترك الاولون بقيادة عثمـــان البرديسى .. والاخرون بقيادة محمد على الذى استطاع بمهـــارته ان يظهر بعد ان اختفى القادة ... والولاة .

ولكن هذا الحلف لم يستمر طويلا لان الشـــعب ثار على المماليك عندما أخذ هؤلاء فى فرض الضرائب الجائرة ..

فاحتشدت الجموع تهتف « ايش تاخذ يا برديسى من تفليسى » وناصر محمد على الشعب فى ثورته .. فهرب البرديسى والمماليك

كدابيهم .. وعاد الامر مرة اخرى الى الاتراك . ولكن هؤلاء لم يتعلموا أو يكتسبوا درسا من المماليك ووقعوا فى الخطأ نفسه ففرض خورشيد باشا ضريبة على أرباب الحرف والصنائع فعادت الثورة جذعة واشعلت على الاتراك كما اشعلت من قبل على المماليك .. وتجمعت الجماهير تهتف « يارب يا متجلى .. أهلك العثمانلى » ..

وزاد فى جسامة هذه الثورة امران : أولهما نزول فرقة من الجيش التركى المعروفة باسم « الدلاة » التى اشتهرت بالفوضى والقسوة . والثانى تأييد العلماء للشعب فقد اضرب العلماء عن القاء الدروس .. وتبنوا هذه الحركة .

الحكم بما أنزل الله ...

وقد عقد العلماء العزم على ان يجتمعوا فى بيت القاضى « لاختصام الوالى واصدار قراراتهم فى مجلس الشرع » فتجمهر حوالى اربعين الف من عامة الشعب حلوا ببيت القاضى .. فى انتظار قرارات هذا الاجتماع التاريخى العظيم .

وقد وصف عبد لرحمن الرافعي بك هذا الاجتماع فى كتابه تاريخ الحركة القومية ، فقال « اجتمع زعماء الشعب فى دار الحكمة . وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع وأرسل يستدعيهم على عجل ، فحضروا ، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :—

— الا تفرض من اليوم ضريبة على المدينــة الا اذا اقرها العلماء وكبار الاعيان .

— أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة الى الجيزة .

— الا يسمح بدخول اى جندى الى المدينة حاملا سلاحه . .

— ان تعاد المواصـــلات فى الحال بين القـــاهرة والوجه القبــلى . .

هذه هى المطالب التى املاها وكلاء الشعب فى اجتمـاع ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ وسلموا صورتها الى القاضى وقام وكلاء الوالى ليبلغوها الى خورشيد بالقلعة .

العلماء ينتخبون واليا .. ويسقطون واليا ..

لم يستجب خورشيد باشا الى مطالب المشايخ ، فاجتمع هؤلاء مرة ، فى اليوم التالى مباشرة (١٣ مايو) بدار الحكمـة واتفقت كلمتهم على عزل خورشيد باشا وتولية محمد على . . فذهبوا اليه ، وأسروا اليه برغبتهم . . فقبل فنهض الشـيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم . . والبساه خلعة الولاية . . وفى **ذلك يقول الجبرتى ((تم الامر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيرة العدل واقامة الاحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم والا يفعـل أمرا الا بمشورته ومشـورة العلمـاء وانه متى خالف الشروط عزلوه)) .**

وبقى عزل خورشيد ، فذهب وفد من العلمـاء اليه ، وابلغوه قرار الشـــعب بعزله . فأبى واستكبر قائلا انه مولى

من قبل السلطان .. ولا يعزل بأمر الفلاحين .. واعتصم بالقلعة ، وارسل يستنجد بجيشه فحاصره الشعب وتولى السيد عمر مكرم قيادة هذه الحركة حتى اضطره فى ٥ أغسطس الى الرحيل .. فكان آخر وال تركى . وانطوت برحيله صفحة الولاة الاتراك .

* * *

يتضح من هذا السرد التاريخى لاحداث هذه الفترة المجيدة ان نفوذ المشايخ بلغ أقصى درجاته ، فهم الذين ذهبوا الى المحكمة ، وقرروا العزل ووقعوه .. وولوا محمد على والبسوه خلعة الولاية . وحاصروا خورشيد باشا حتى سار المنادى يقول « حسبما رسم السيد عمر أفندى والعلماء » وحتى قال الجبرتى:

« انتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى واهل البلاد والرعايا ... » .

ويتضح كذلك ان الشعب قد اهتدى الى حقوقه بهدى الدين . ووجد فى اوامره ونواهيه تكييف رغبته ومطابقة مراده فكان الباعث الاصلى على الثورة كما كان فى الثورة على الفرنسيين ، قوميا أى الثورة على ظلم الولاة ، وحق الشعب فى تقرير مصيره ، وتوليه الامراء وعزلهم ، ولكن صياغة هذه الرغبات القومية فى الشكل النظرى وتكييفها ، وتدعيمها بفلسفة .. لم يلتمس فى الدراسات النظرية كما تم فى أوروبا ولكن فى الاسلام وان انتهى بها الى النهاية نفسها . أى اعلاء كلمة الشعب وتقرير سيادته . وكلمة الجبرتى « تم الامر بعد المعاهدة والمعاقدة

على سيرة العدل واقامة الاحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم.. والا يفعل امرا الا بمشورته ومشورة العلماء .. وانه متى خالف الشروط عزلوه » تتضمن فى الواقع أصول الحياة الدستورية .. فكلمة « المعاقدة » توحى الينا بفكرة العقد الاجتماعى . وتقرر ان سلطة الوالى سلطة تعاقدية .. ما لم يقم بها يعزل .. وهذه السلطة ليست فحسب تتضمن أسقاط المظالم .. واقامة العدل .. بل أيضا الشورى « والا يفعل أمرا الا بمشورة العلماء » .

ومما يوضح اثر الوازع الاسلامى ة عزل خورشيد بفتوى ، .. والاجتماع فى المحكمة ، والاختصام الى الشرع ، وأن يكون القاضى هو الحكم . ومما يدل على ذلك أيضا ان هذه الثورة القومية لم تعتبر الجنس — وهو أخص المقومات القومية — رغم أن الوضع نفسه كان يتطلب التفكير فى هذه الحالة . فلم يدر فى خلد أحد ان يولى السيد عمر مكرم . ولم يعترض أحد بأن محمد على تركى كخسرو . بل أن القاضى نفسه ، وهو تركى ، لم يتردد فى أمضاء مطالب الشعب وارسل الى خورشيد يستحثه على الخروج ....

فالفكرة الاسلامية لها القدح المعلى فى هذه الحركة المباركة التى كانت بداية عهد جديد . وبلغت فيها القوة الشعبية ذروتها (١) .

---

(١) نشرت فى العدد الصادر فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٥٢ (غرة شوال ١٣٧١) من مجلة الدعوة (ص ١٢) تحت عنوان « كفاح الحركات الاسلامية فى سبيل القومية المصرية » .

ان حكم محمد على لهذه البلاد منذ أن انتخبه الشعب فى ذلك اليوم المشهود من أيام مايو سنة ١٨٠٥ حتى وفاته تصور لنا قصة حكم قام وازدهر على الشورى والمشاركة ثم تهاوى وسقط — بالتفرد والاستبداد وهى قصة طالما قصها التاريخ للحكام دون أن يعيروها أذنا أو يمنحوها التفاتا لان اغراء السلطة كان — ومازال — أقوى من صوت العقل ..

ان تولية محمد على ، على هذا النحو الخارق قد آثار الحسد والريبة فى نفوس الاتراك والمماليك والانجليز . ولولا سياسته الرشيدة لما استطاع أن يستقر على هذا الكرسى القلق الذى طالما تهاوى بالجالسين عليه .

وكانت سياسة محمد على فى صدر ولايته تتلخص فى كلمة واحدة : الحصول بأى ثمن على مساعدة العلماء ، ومن ورائهم الشعب . وكان له اسلوب فذ عجيب فى ذلك ، فاذا احتاج الى مال أوفجأته نازلة .. اعترف بالعجز . وهرع الى المشايخ طالبا المساعدة . مشركا أياهم فى المسئولية بأعتبارهم أصحاب الامر . وبذلك كان يحول بينهم وبين الرفض . وخير ما يمثل هذا الاسلوب تلك القطعة الواقعية الحية من كتاب الجبرتى « ... تكلم مع المشايخ فى ذلك واخبرهم بأن العسكر باق لهم ثلاثة آلاف كيس لا يعرف لتحصيلها طريقة فانظروا فى ذلك . وكيف يكون العمل ولم يبق الا النوبة ... » ويروى الجبرتى ان المشايخ قبلوا آن يستولى على ثلث الفائض من

الحصص والالتزام . وقبل محمـــد على بدوره أن يكتب زمانا يلتزم فيه عدم العودة الى ذلك ثانيا ويثبت فيه . لعن الله من يفعلها مرة أخرى » .

لهذه السياسة الرشيدة تآزر العلماء والمشـايخ وكبـار المصريين مع محمـــد على حتى ولايته .. واســتمر التآزر بعـد الولاية .. أذ لما استجابت تركيا لدسائس انجلترا ومسـاعى المماليك وولت واليا جديداً . وارسلت اسطولا بحريا لاجبـار محمد على على التنفيذ . اجتمع المشايخ وكتبوا محضرا يعترضون فيه على عزل محمد على وتولية موسى باشا ورجوع المماليك . ويعلنون أنهم لا يستطيعون أن يتحملوا مسئولية رجوع المماليك. ويصرون على محمد على وبهذا الرد نفسه كتبوا الى موسى باشا عندما كتب اليهم « انه لا يقبل هذه الاعذار . ولا ما تخفوه من التمويهات التى لا أصل لها ولابد من تنفيذ الاوامر وسفر الباشا (أى محمد على) ولا شىء غير ذلك أبدا » .

وفى الحرب بين محمد على والمماليك . وبين محمد على والانجليز فى حملتهم الاولى كان الدور الذى قام به المشـايخ والسيد عمر مكرم دورا لا يمكن اغفاله .

تنـازع الشركاء

وبهذا كله اختفت القوى المنافسة شيئا فشيئا وبدأ الامر يخلص ويصفو لمحمد على ، فيما عدا مشاركة زعماء الشـعب وهى التى تطلبها محمد على ابتداء ، واستطاع بفضلها أن يقهر الاقران والخصوم .

ولكن هذه الزعامة اصبحت بعد أن صفا الجو شيئا مضايقا .. وبدأ وحش السلطة والاستبداد يتقلب بين جنبيه .. وأن الانسان ليطغى ان رآه استغنى ..

وقد وقعت الواقعة عندما فرض محمد على ضرائب جديدة كما اعتقلت شرطته طالبا أزهريا يمت بصلة القرابة الى أحد المشايخ . فتوتر الجو . وأقبلت الجماهير كدأبها القديم تصرخ وتستغيث ، فاجتمع المشايخ بالقبلة وارسلوا الى السيد عمر مكرم فحضر . واجمعوا الرأى على الاعتراض كتابة على المحدثات الجديدة والمغارم واعتقال الطالب الازهرى دون ذنب .. فكتبوا كل ذلك . وارسلوا احتجاجهم اليه ...

فأرسل اليهم محمد على وكيله طالبا أن يذهبوا اليه .. قال الجبرتى فى ذلك « حضر ديوان افندى وقال ان الباشا يسلم عليكم ويسأل عن مطلوباتكم فعرفوه بما سطروه اجمالا وبينوه له تفصيلا فقال ينبغى ذهابكم اليه وتخاطبونه مشافهة بما تريدون وهو لا يخالف أقوالكم ولا يرد شفاعتكم وانما القصد ان تلاطفوه فى الخطاب لانه شاب مغرور وجاهل وظالم غشوم ولا تقبل نفسه التحكم وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم انفاذ الغرض فقالوا بلسان واحد لا نذهب اليه ابدا مادام يفعل هذه الفعال . فان رجع عنها وامتنع عن احداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا اليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق فاننا بايعناه على العدل لا الظلم والجور » .

ولا يخفى ما فى هذا الرفض من تهديد خفى ..

افرج محمد على فورا عن الطالب الازهرى ، ثم بدأ يسعى بالتفرقة بين العلماء فتودد الى بعضهم ، وانتجت سياسة الوفاق والتودد أثرها البغيض اذ مالت اليه طائفة منهم . ولم يبق الا السيد عمر مكرم والقليلون .

وحدث أن كتب محمد على كشفا بحساب ما انفقه فى مصر من الخراج وقدره نحو أربعة آلاف كيس ليرسله الى تركيا

وارسل البيان الى السيد عمر مكرم لاقراره . فامتنع ورأى أن ما صرفه يقل عما قدره .. وأما غير ذلك فكله كذب ولا أصل له وان وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظـــالم لما وســـعته الدفاتر . فحنق محمـد على وطلب اليه الحضور فرفض فلما تعددت الرسل بينهما فى ذلك قبل السيد عمر أن يجتمع بمحمد على فى بيت السيد السادات .

ورأى محمد على أن الوقت قد حان ليضرب ضربته مراعيا فى ذلك الاعتبارات الدقيقة الشائكة التى كانت تحوطه . ومع انه كان مطمئنا الى تحيز المشايخ بعد افساده لهم وايقاعه بينهم وبين السيد عمر مكرم . ألا انه فضل أن تأخـذ ضربته شـكلا شرعيـا ، فلما كان يوم ١٩ أغسطس طلب القاضى والمشـايخ وأرسلوا رسولين الى السيد عمر مكرم احدهما من محمد على والثانى من القاضى واعتذر السيد عمر مكرم فأصدر محمد على قرارا بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الاشراف ونفيه من مصر وتنفيذ الامر فوراً . وخلع على السيد السادات خلعة الاشراف.

وهذا التدبير من محمـد على يدل على انه مازال يخشى النفوذ الدينى ويقدره ولهذا جاءت ضربته عزلا للسيد عمر مكرم من نقابة الاشراف ، وهى الرئاسة الروحية الكبرى التى تماثل مشيخة الازهر .. وعلى أن تأتى هذه الضربة بمحضر من الشيوخ وبصفة فيها المظهر الشرعى .

وانها لخاتمة مؤسفة للشيخ السادات ولغيره من المشـايخ تخيب كل متابع لظهورهم الشعبى ، حتى انطوائهم الرسمى .. ولكن هذه الخاتمة نفسها تصـور أن قوامة الدين لم تتزعزع الا بفساد أهله ، وانها لم تأت الا من الداخل وان المعنى الاسلامى

وراء المشايخ كان المؤثر ، فلم يكن السادات ولا عمر مكرم أنفسهم ... ولا العلماء بشخوصهم هم سر القوة .. ولكنها المعانى الاسلامية عندما شهروها فى وجه الحكام .. فلما سلموا للحكام .. لم تعد لهم أهمية ..

وداع مصر .. العهد القديم ..

اصطنع محمد على بقية العلماء وخسروا بذلك زعامتهم الشعبية والاسلامية ، فلما هاج سكان القاهرة سنة ١٨٢٢ أثر فرض ضريبة على المنازل ، وذهبت الجموع الى دار الشيخ العروسى شيخ الجامع الازهر ، وخرج الشيخ من داره قاصدا الازهر تلتف به الجماهير لم يأبه محمد على لذلك ، واتخذ الاجراءات الحاسمة ونفذت الضريبة كما فرضت فكان ذلك ختام هذا العهد الشعبى الحافل ونهاية تلك المظاهر التى كانت مرآة صادقة لارادة الشعب واجبة التنفيذ ، وبداية العهد الجديد .. وسلطة النظام الرهيب والقانون الملزم ..

والواقع أن الكاتب لا يستطيع أن يختتم هذا الفصل دون أن يظهر تقديره لهذه الفترة المجيدة من حياة البلاد ، على ما حفلت به من مظالم ومتاعب .. وما كان عليه الشعب من شظف .. وفاقة وجهل .. فما أمجدها .. وما أروع المظاهر التى تبدو فيها ارادة الشعب .. اين هذا العهد الذى يستطيع فيه الشعب دون اخطار أو أنذار أن يتجمع ويهتف بسقوط حكامه ، كما كان الناس يهتفون .. أين ذلك العهد الذى يستطيع فيه الشيوخ والعلماء أن يعزلوا الوالى .. وان يولوا من يختارونه ليحكم بالعدل والا عزلوه .. أين ذلك العهد الذى يطلب فية الحاكم مقابلة نقيب الاشراف فيرفض هذا باباء وشمم .. ثم يتنازل

فيقبل لقاءه فى دار كبير علماء البلد .. اين هذا المعهد الذى يقذف فيه شيخ الازهر بشارة الجمهورية الفرنسية الى الارض من يد نابليون العظيم .. وامام عينه .. لا جرم أن كرسى المشيخة فى الازهر ليتزلزل عندما يجلس عليه مشايخ هذا المعهد الذين ارتضوا الدون من الحياة ، وجعلوا لحاهم لعبة للحكام واسماءهم مضغة فى الافواه ..

سلام عليك يا مصر الحرة الى يوم البعث الجديد .. سلام عليكم « يا حشرات » الحسينية .. و « يا فتوات » بولاق .. ويا حجاج الخضرى .. ويا مصطفى البشتيلى حتى يقتدى بكم الاحفاد والاخلاف .. سلام عليك ايتها الحرية التى كنت قانونا للشعب ... ولم يكن القانون الضيق الحرج .. حريته .. سلام عليكم أيها المشايخ والقادة .. الذين اديتم الامانة .. وحملتم الرسالة .. ونصحتم الشعب .. (١) .

(١) نشرت بالعدد الصادر فى أول يوليو سنة ١٩٥٢ (٩ شوال ١٣٧١) من مجلة الدعوة (ص ١٣) تحت عنوان « كفاح الحركات الاسلامية » وهى آخر مقالات هذه السلسلة .

الباب الثاني

اثر جمال الدين الافغانى
فى إذكاء الوطنية وانهاض المجتمع
والمطالبة بالدستور

يعرض الفصل احالة المجتمع المصرى الذى كان قد اخذ يتدهور نتيجة لسياسة الاستسلام للاجانب والوقوع فى شبكة الديون ، ولأنه كان قد اخذ يبتعد شيئا فشيئا عن الاسلام الذى كان وقتئذ المقوم الاول فى المجتمع والسياسة ، وكيف استطاع الزعيم الاسلامى جمال الدين الافغانى ان يذكى ضرام الوطنية ويحيى رميم القومية ، ويعيد الحماسة والأمل الى موات النفوس . واثره فى الصحافة والكتابة — ثم الدعوة الى الحكم النيابى واصدار الدستور . وقد جاءت ثمرة هذه الاستثارة فى قومة عرابى التى حدثت بعد أن نفى جمال الافغانى من القاهرة ، وما تلاها من احداث انتهت بالاحتلال البريطانى .

ويكشف الفصل عن حقيقة جوهرية هى ان عداوة جمال الافغانى للاستعمار جعلته من دعاة الوطنية ، وفى هذه النقطة يتلاقى الاسلام والوطنية ، لأن عداوة جمال الدين الافغانى كانت تقوم على سبب اصولى اسلامى هو الجهاد الذى يصبح فرضا على الجميع رجالا ونساء عندما تغزى البلاد . ولهذا السبب نجد ان الدعوات الاسلامية كانت هى دعوات التحرير ، وانها هى

التى تولت طرد المستعمر ، حدث هذا فى مصر ، والجزائر والعراق وسوريا الخ . فهناك رباط وثيق يربط ما بين الاسلام والوطنية على نقيض ما يتصور بعض الناس .

ويثبت الفصل بالوقائع والحقائق ان جمال الدين الافغانى كان فى هـذه المرحلة اول من نهض بالصحافة المصرية والكتابة العربية واول من طالب بالدستور ، وأن ينزل الحاكم على ارادة الشعب ومن العقوق أن لا يعترف المجتمع المصرى الحديث بذلك ، فلا تتصدر صورته « نقابة الصحفيين » او « مجلس الشعب » ولكنها مؤسسات هزيلة ، تظلم نفسها ، كما تظلم الحقيقة فلا عجب اذا ظلمت الافغانى .

وكما ذكرنا فى المقدمة ، فاننا نفقد المقـال الاول من كتابنا « الدعوات الاسلامية المعاصرة ما لها وما عليها » بعد أن يأسنا من العثور عليه اما المقال الثانى فقد نشر فى مجلة الدعوة عدد يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ (٣٠ شوال ١٣٧١) ونشر الثـالث يوم ٢٩ يوليـة سـنـة ١٩٥٢ (٧ ذو القعدة سنة ١٣٧١) .

— ١ —

كان التطور العلمانى الذى بدأه محمد على يبتعد شيئا فشيئا عن التيار الاسلامى الذى كان وحده منبع الفعـاليـة فى المجتمع المصرى ولم يعد فى البلاد شخصية مثل عمر مكرم ترفع البيرق النبوى فتلتف حوله الجماهير . وكان رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك مزيجا ما بين التأسيس الاسلامى والتطوير الحديث ومع اختفائهما فقد هذا النمط الوسيط زعيميه .. وبدا أن التيار الاسلامى يتدهور ويفقد حتى المحـل الثانى ، عندما لمعت كالشهاب الثاقب فى الاجواء الراكدة شخصية اسلامية فريدة ونادرة وستظل أبدا مثالا فذا للدعوة الاسلامية تكسب اعجاب وتقدير كل المفكرين وكل الثوريين وجاءت هذه الشخصية فى احدى فترات الحرج فى التاريخ العربى ..

كانت تلك هى شخصية السيد جمال الدين الافغانى .

لقد توفر لهذا الرجل ما لم يتوفر لمن سبقه ومن خلفـه .

كان رجلا عالميا جعل من العلم قريته فهو فى الافغان والهند وايران وروسيا وتركيا ومصر وفرنسا وبريطانيا ، وهو يجيـد العربية والفرنسية والتركية والفارسية ومن النادر أن نجد — على مستوى العالم بأسره — ثوريا كهذا ..

كان ثوريا حادا كالسيف .. متوهجا كالنار لا يلين ولا ينثنى ولا يضعف ولا تهزه الكوارث والنوائب ولا تغريه المغريات وقد أضرب عن الزواج حتى لا يقعد به أو يكون على حساب حريته فى العمل . وفى كل مكان يحل به كان يضرم الثورة ويثير الحماسة كانما هو بركان ثائر متحرك يقذف أينما يكون بالحمم .

وكان العدو الاول للاستعمار وبالذات الاستعمار البريطانى . وفي الوقت الذى وصل فيه هذا الاستعمار الى القمة ووصل الحكم الفيكتورى الى الاوج وسلم العالم كله بشعار « سودى يا بريطانيا واحكمى » وآمن كل الحكام والسياسيين — غالبين ومغلوبين — أن لا قاهر امام بريطانيا واسطولها ، في هذا الوقت قال جمال الدين أن الاستعمار عارية وأن كل المناطق المستعمرة ستؤول الى اهلها وتنبأ بتهاوى الامبراطورية البريطانية ووعد احد أتباعه بالسير فى جنازة الامبراطورية الروسية .

كان عدوا مطبوعا للمستبدين والملوك وأراد تاجا بدون راس او راسا بدون تاج .

كان أرستقراطيا نبيلا سيدا بحكم المنبت والمنشأ ولكنه أفنى حياته فى خدمة الشعوب والجماهير .

كان صوفيا لا يفنى في الله ولكن فى عباد الله وكان مسلما متحمسا ولكن اسلامه يسع المسيحيين واليهود فكان من أتباعه النابهين أديب اسحاق المسيحي ويعقوب صنوع اليهودى .

كان سياسيا ومعلما ومؤسسا لاحزاب ومصدرا لصحف ومكونا لمحفل ماسونى وداعيا للنهضة النسائية .

كان « تقدميا » فى كل حركاته وعاداته من جلوسه على المقاهى أو مطعمه الذى يقوم على الشاى والسجاير أكثر مما يقوم على غيرهما أو فى ملبسه العمامة والجبة ذات الياقة والنظارة والحذاء الذى كان يعد بدعة فى مصر وقتئذ .

هذا هو بعض علم جمال الدين .. لأن جمال الدين كان أمة وحده .

جاءت هذه الروح المتوقدة المتوهجة .. بنارها ونورها مصر في فترة من أدق فترات حياتها عندما بدأ الخديوى اسماعيل الانزلاق ولخذت حلقات النفوذ الاجنبى تتهيأ للاطباق على مصر .

ووصف صفية المخلص الشيخ محمد عبده حالة مصر عندما قدمها جمال الدين :

« هذه كانت شدائد مهلكة وظلمات حالكة يضل فيها الرشيد ويتعثر فيها العزم الشديد ولكن كان يلوح خلالها ضياء لو كمل ظهوره وانتشر نوره لاهتدى به الضال وحسن به الحال .

ذلك أن اهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الاعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقد أن سعادتهم وشقاءهم موكولة الى أمانته وعدله او خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى أدارة بلاده او ارادة يتقدم بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الاخرى سواء أكانت اسلامية او اوروبية . ومع كثرة من ذهب منهم الى اوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على الكبير وابراهيم باشا لم يشعر الاهالى بشيء من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التى اكتسبت لها . ومع أن اسماعيل

باشا ابدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه أن يعلم الاهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها فلم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم أن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل « أما فى النظام فلانه قد نص فيه على أن نظر المجلس ينحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ومما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه ، وأما فى العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية فكانوا يشعرون أن الارادة المطلقة هى التى كانت تصرفهم فى ارائهم(١) وهل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف ما يؤمر به ؟ هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له أو الوجهة التى يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه الفكر السليم بأن هنالك وجهة خير من ذلك .. هل كان يمكن أن ينطق بما حدثه به فكره ؟ كلا فانه كان بجانب كل لفظ .. نفى عن الوطن أو ازهاق للروح أو تجريد من المال » .

ويستطرد الشيخ محمد عبده : « وبينما الناس على هذا لا كاتب ينبههم ولا خاطب يعظهم اذ عرض أمر قلما يلتفت اليه أو تحوم الافكار حواليه وان كان مما يعرض فى كل مكان وجرت به السنة الآلهية كل زمان .

جاء الى هذه الديار فى سنة ١٢٨٦ه رجل غريب بصير فى الدين عارف بأحوال الامم واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب هو المعروف بالسيد جمال الدين الافغانى وركن الى الاقامة فى مصر فتعرف اليه فى بادىء الامر بعض طلبة العلم ثم اختلف

---

(١) كان هذا وصف مجلس شورى القوانين سنة ١٨٦٦ قبل ظهور الافغانى .

اليه كثير من الموظفين والاعيان ثم أنتشر عنـــه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد فكان ذلك داعيا لطلب الاجتماع به لتعرف ما عنده ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم وهو فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس الى معالى الامور أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشـــئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام العطلة والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحبائهم واستيقظت مشاعل وأنتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد وخصوصا فى القاهرة».

* * *

وتتركز الاهمية الخاصة للسيد جمال الدين الافغـــانى فى النقط الآتية :

أولا — أنه كان أول داعية سياسى اســـلامى فى العصر الحديث وهو بهذا المعنى يختلف عن محمد بن عبد الوهاب الذى كان داعيـــا اســـلاميا ولكنـــه لم يكن سياسيا أو كان سياسيا ساذجا ، كما يختلف عن عمر مكرم الذى كان سياسيا اســـلاميا ولكنه لم يكن داعية لكما تختلف دعوة السيد جمال الدين الافغانى عن دعوة « الاخوان المسلمين » فى مصر أو « الجماعة الاسلامية » فى الهند فى نقطة هامة هى أن دعوة جمال الدين كانت ثمرة تفاعل الايمان الاسلامى بالوقائع الاجتماعية الراهنة فى حين أن دعوتى الاخوان المسلمين والجماعة الاسلامية استقراء واجتهاد فكرى لما أرتأيا أنه التصور السياسى الاسلامى الامثل من فهمهما

ودراستهما للنصوص الاسلامية . ومن هنا كانت دعوة جمال الدين اكثر حيوية وحرارة وصدقا ومرونة .

ودعوة جمال الدين هي — كما صورها تلميذه محمد عبده : « انهاض احدى الدول الاسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنيف مجده ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية وله في عداوة الانجليز شئون يطول بيانها » . وقد حاول القيام بذلك في عدد من الدول كل على حدة كتركيا وفارس ولكن أعظم البلاد حظا من جهوده ونيلا لعنايته كانت مصر التى أمضى فيها وحدها قرابة ثمان سنين (١٨٧ — ١٨٧٩) .

وكان جمال الدين يرى أن من دواعي هذه النهضة أن تتحالف الدول الاسلامية وقد أساء المستشرقون هذا المعنى عندما ترجموه الى « الجامعة الاسلامية » وأخذوا يعيدون ويزيدون فيها خاصة بعد أن حاول السلطان عبد الحميد الاستفادة منها في حين أن كلام جمال الدين صريح في هذا « لا التمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخصا واحدا فان هذا ربما يكون عسيرا ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع فان حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم » وهذا كلام واضح لا لبس فيه وحكمته ظاهرة وجلية وقد استقاها جمال الدين من واقع تحلل الدول الاسلامية وأن فرقتها واختلافها كان من أكبر أسباب سقوطها — واحدة أثر أخرى — في يد الاستعمار .

ثانيا (*) كان السيد يؤمن بالاصلاح السياسى السريع اكثر مما كان يؤمن بالاصلاح الاجتماعى البطىء . ولم تكن لتعنيه الوسائل ما لم تكن فيها مخالفة صريحة لتعاليم الاسلام . فلما أراد ان يتغلغل فى المجتمع المصرى دخل الماسونية . ولما لم يعجبه المحفل الذى انضم اليه أسس محفلا مستقلا ضم علية المصريين بما فيهم توفيق باشا — ولى العهد — .

ولعل مما يشرح لنا تفضيله للعمل السياسى الحاسم تلك الفقرات التى يلمس كل قارىء صدقها واخلاصها وانبعاثها من أعمق أعماق الشعور « ما الحيلة وما الوسيلة .. فالجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الاثر لو صحت الضمائر فيها والوقت ضيق .. والخطب شديد ..

أى جهورى من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات .. أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة .. وتحرك الافكار الخامدة أى نفخة تبعث هذه الارواح فى أجسادها وتحشرها الى موقف صلاحها وفلاحها ..

الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب . المواصلات عسيرة بين الشرقى والغربى . والجنوبى والشمالى الرءوس مطرقة الى ما تحت القدم .. ليس للابصار جولان . ولا للاسماع اصغاء ، ولا للنفوس رغبات .. ولكن للاهواء تحكم وللوسواس سلطان ..

ماذا يصنع المشفقون على الامة ، والزمن قصير . ماذا

(*) من هنا يبدأ المقال الذى نشرته مجلة الدعوة العدد الصادر فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ (٣٠ شوال ١٣٧١) تحت عنوان « جمال الدين الافغانى » .

يحاولون والاخطار محدقة بهم . بأى سبب يتمكنون . ورسل المنايا على أبوابهم ..؟ » .

ثالثا ـ اقام السيد دعوته من الناحية السلبية على حرب الاستعمار واختص انجلترا بالذات بالقسط الاوفى من عداوته وحربه ، لانها كانت عميدة الدول الامبراطورية ومحركة السياسة الاستعمارية وكل من أرخ له لمس هذه العداوة . فالشيخ محمد عبده يقول عن مبادئه « .. ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الاقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها . » وهذا أديب اسحاق تلميذه المقرب يقول « وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز ، جهر بذلك غير مرة ونشر فى جريدة مصر فصولا ناطقة به » . واما سليم بك العنحورى فقد ترجم له لمناسبة شرح البيتين التاليين من ديوانه « سحر هاروت »

ترنو الى بمقلة غضبى اذا بصرت بطود سال كالوديان
فكأننى بيكونسفياد(١) زمانه وكانها من بغضها الافغانى

ومن يراجع أعداد العروة الوثقى يجدها حافلة بكشف فضائح الانجليز وأساليبهم الاستعمارية فى الافغان . والهند وفارس ومصر .. وغيرها . وقد ظل ثابتا على هذه العداوة ولم يؤخذ بألاعيب الاستعمار أو تنطلى عليه خدائعهم . فجعل الحرب والكفاح والمقاومة السبيل الوحيد للعمل والطرق الناجعة للحصول على الاستقلال فهو بحق عدو بريطانيا رقم ١ .

---

(١) هو بنجامين دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا المشهور ، ورئيس حزب المحافظين .

رابعا — كان ثمة عداوة تقليدية بين دعوة جمال الدين ، وبين الامراء والقادة . ولم يسلم لا هو ولا تلامذته من اضطهادهم وقد باءت كل محاولاته في استخلاص أحد القادة بالفشل فقد كان أقرب هؤلاء اليه هو محمود سامى البارودي ومع هذا فقد طرد (أى الافغانى) من مصر فى عهد وزارة يشترك فيها محمود سامى البارودي . وبعد أن استقدمه الشاه تحرجت العلاقة بينهما حتى أخرجه بطريقة مهينة . ولما استطاع السلطان عبد الحميد ، مستثيرا فيه الحمية الدينية أن يجعله ينزل فى كنفه لم تصف العلاقات بينهما . بل تواتر عن السيد انه كان يقول عن السلطان عبد الحميد « هذا الرجل سل فى رئة الدولة » .

ولم يفهم جمال الدين أن العداوة بين الدعوة التحريرية وبين السلطات الحاكمة أصيلة الا أخيرا جدا ، فى تلك الاماسي التى كان يتنزه فيها كسير الفؤاد فى « بشكاس طاش » يتعقبه جواسيس عبد الحميد . وهو يستعيد قول المتنبى:

يقول لى الطبيب اكلت شيئا وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى علمه انى جواد اضر بجسمه طول الجمام

وانما تأخر هذا الفهم لديه لانه لم يعط وجهة النظر الطبقية ما تستحقه . ولم يقدر طغيان السلطة وافسادها فضلا عن انه كان — رحمه الله — يخدع ككل طيب النفس اذا أوتى من ناحية الكرم والعاطفة ويستجيب اذا استثيرت حميته الدينية ..

خامسا — لذلك لم يعن جمال الدين بالقادة والامراء والملوك ووجه دعوته الى الجماهير والسواد ، الى الطلبة والشباب

و « العــوام » الذين كان يقـربهم كمـــا يروى سنـــليم عنحورى « ويقول لهم اثناء مكالماته ما معناه انكم معاشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد .. وربيتم بحجر الاستبداد .. وتوالت عليكم قرون من زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وانتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسنومكم حكوماتهم الحيف والجور . وتنزل بكم الخسف والذل ، وانتم صابرون ، بل راضون ، وتنتزف قوام حيـــاتكم ومواد غذائكم الجموع بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وانتم فى غفلة معرضون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كرات حيـــة . وفى رءوسكم اعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة . ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ولما قعدتم على الرمضاء وانتم ضاحكون . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والاكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة فى الخلاء لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر . وهياكل منفيس ، وآثار ثيبة . ومشاهد سيوة وحصون دمياط شـــاهدة بمنعـــة آبائكم وعزة اجـــدادكم » .

فهذا التوجيه ليس فحسب شعبيا ، بل انه أيضا قومى كاشد ما تكون القومية .

سادسا — اتسمت دعوة السيد بالنشـــاط فى الدعاية الدولية . وهذه من أعجب سمات دعوته . ففى هذا العهد السحيق والحواجز قائمة بين الامم والشعوب . والمواصـــلات صعبة ،

والتعصب الدينى على أتمــه .. والغرب يردد صنــيحة كبلنج « الشرق شرق . والغرب غرب .. ولن يلتقيا .. » كان هذا الشيخ المعمم يلقى عصا التسيار بعد أن طورد فى أربعة اركان العالم الاسلامى . ونفى من عواصمها فى باريس ثم يستقدم ، أعماق الزيف المصرى شيخا معمما آخر ليلحقــه فى باريس ويصدران «العروة الوثقى» . فاذا حوربا فى فرنسا اقتحم السيد جمال الدين انجلترا عدوته اللدود واقام بانجلترا حينا من الدهر يصدر مجلته الرائعة « ضياء الخافقين » التى سود صفحاتها بالتنديد بالشاه المستبد . وهو فى فرنسا وانجلترا دائب السعى والاتصال السياسى لما فيه خير العالم الاسلامى . أن هذه الخصيصة من خصائص دعوة جمال الدين عجيبة واعجب ما فيها انها على سبقها لكل الدعايات الدولية التى تلتها ، فانها سلمت من شوائب هــذه الدعايات فاشهرها — دعاية مصطفى كامل باشا للقضية المصرية — كانت مشوبة بالاعتماد على النفوذ الفرنسى . والحركات الاخرى كانت كلها حركات استطلاع أو استعطاف اما جمال الدين فقــد استغل حق اللاجىء السياسى واســتغل حرية الصــحافة فى باريس ولندن ليندد بسياسة باريس ولندن . وما كان يبالى . وقد أحرق السفن من ورائه . وتقطعت بينه وبين بلاده أســباب العلاقات أن يتول كلمة الثورة . وقد روت مجلة العروة الوثقى نبأ سفارة سياسية قام بها الشيخ محمد عبده الى لندن لا نرى بدأ من نقلها — رغم طولها — حتى تكون درسا للمفاوض المصرى .. وهى فى العدد الرابع عشر تحت عنوان هؤلاء رجال الانجليز .. وهذه افكارهم ..

« رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده « المحرر الاول لهذه الجريدة » الى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية فى رعاية مصــالح المســلمين من رجال

السياسة الانجليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التى ما مر عليها قدم شرقى الا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه . ويسبر اغوار المطامع الانجليزية التى لا يدرك منتهاها .. تلك المطامع التى بعد أن التهمت ثلث المسكونة وطوقت كرة الارض بالفتح والاستملاك لم تزل فى مد لا جزر معه . ولايزال رجال حكومة بريطانيا فى نهم شديد لابتلاع ممالك العالم . وكلما اساغوا قطرا ضموا اليه آخر . وليستطلع خفايا المقاصد من ثنايا الافكار وغضون الاقوال وليقف على الطرق الملكوفة(١) بين أولئك السياسيين فى التلوين ويتبين كيف يتمكنون من ابراز محاسن الاعمال فى صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها . واظهار السيئات فى الوان بهيجة تسر الناظرين .

لاقى محرر الجريدة كثيرا من رجال السياسة الانكليزية . وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة فى الاحوال المصرية .

ومن محادثاته الابتدائية ما نشر فى بعض الجرائد الانجليزية كجريدة البال مال جازيت وجريدة « الترويث » التى يحررها النائب الشهير مستر لابوشير وجريدة التيمز .

اما الآن فنأتى على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانجليزية ليأخذ كل مصرى منها حظه . ويصيب كل شرقى سهمه .

سأل اللورد هرتنكتون « الا يرضى المصريون ان يكونوا فى امن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية .. او لا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا .. وفلان باشا ..؟

---

(١) لعلها من اكف الحمار اى شد عليه الاكاف « اى البردعة » .

فقال الشيخ « محرر جريدتنا » كلا ان المصريين قوم عرب، وكلهم مسلمون الا قليلا .. وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب المصرى . فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ولا يصح لحضرة اللورد — وهو على علم بطبائع الامم — أن يتصور هذا الميل فى المصريين.

فقال الوزير — هل تنكر ان الجهالة عامة فى اقطار مصر، وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الاجنبى والحاكم الوطنى . وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون فى الامم المهذبة :

فاخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون فى أداء ما فرض الدين واوجبته حقوق الله . فقال أولا : ان النفرة من ولاية الاجنبى مما أودع فى طبع البشر وليس بمحتاج الى الدرس والمطالعة . وهو شعور انسانى ظهرت قوته فى أشد الامم توحشا كالزولو الذين لم تنسوا ما كابدتموه فى الدفاع عن أوطانهم ..

وثانيا * : ان المسلمين مهما كانوا ، وعلى أى وجه وجدوا لا يضلون من الجهل الى الدرجة التى يتصورها الوزير . فان الاميين منهم لا يفوتهم العلم بضروريات الدين . ومن اجلاها واظهرها أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه . وأن لهم فى خطب الجمعة ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية . وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ..

وثالثا : ان أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على ما هو موجود فى بلاد أوروبا وأخذ كل مصرى نصيبا منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى

---

* من هنا يبدأ المقال الذى نشر بمجلة الدعوة الصادرة فى ٢٩ يوليو سنة ٥٢ (٧ ذو القعدة ١٣٧١ .

الصغيرة من ان يكون فيها قارئون وكاتبون والاخبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ومن لم يقرأ يستنبيء الاخبار من القارئين فبهذا اضافوا الى الشعور الطبيعى والتقليد الدينى محبة وطنية منشئوها التهذيب العمرمى ..

اين العلماء الاذكياء ، اين الاباة الاعلياء يرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانجليزى يظن أن الجهل يبلغ من المسلمين عموما ، والمصريين خصوصا الى حد سلب عنهم كل احساس انسانى ، وانهم فى حضيض من الجهل لا يميزون بين الغريب والقريب ولا بين العدو والحبيب الخ .. » انتهى .

ففى هذه السفارة استطاع الشيخ محمد عبده ، وليست له أية صفة ما عدا أنه المحرر الاول لمجلة العروة الوثقى .. ان يرد على اللورد هرتنكتون ردا أفضل من رد سفراء مصر الثلاثة : سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى — على اللورد ونجت فى ذلك اليوم الذى اعتبره الساسة الحزبيون ميدا للجهاد الوطنى والهمه المنطق الدينى خير دفاع يمكن أن يصد به تهمة أمية الامة .

من هذا السرد التاريخى نعلم الخصائص والسمات التى تميزت بها دعوة جمال الدين الافغانى ، وهى الاسلامية والسياسية والشعبية . ومقاومة الحكام والملوك والقادة ، وحرب الاستعمار والنشاط فى الدعاية الدولية ..

اثر دعـوة جمـال الدين

كان لدعوة جمال الدين اثر عميق فى المجتمع المصرى . . والجيل المصرى المعاصر يجهل قدر هذه الدعوة واثرها لأن التاريخ المصرى الحديث لم يكتب بعد على حقيقته ولأن الساسة

الحزبيين قد افتاتوا على التاريخ واستطاعوا الى حد كبير أخفاء الحقائق الجوهرية فى التاريخ المصرى وقد قال الشيخ محمد عبده « إن السيد لم يعمل عملا حقيقيا الا فى مصر »، واذا تذكرنا انه قد أقام بمصر وحدها ثمان سنوات ادركنا صحة هـذا الكلام .

.. وقد ظهر اثر دعوة جمال الدين بصفة خاصة فى ناحيتين الاولى : النهضة بالكتابة والصحافة .. والثانية المطالبة بالدستور والدعوة للحكم الشورى ..

.. اما عن الناحية الاولى فان جمال الدين هو مجدد الكتـابة العربية ومبدع « المقالة » التى ظلت ردحا طويلا عماد الصحافة وظلت قوامه على الشئون العامة حتى جاء فن « الخبر » لينزعها من صدار الصحافة، وليجعل من الصحف أداة أخبار بعد ان كانت اداة ثقافة ورسالة مبادىء .

. قال الشيخ محمد عبده يصف اثر السيد فى ترقية اسلوب الكتابة « وحث تلامذته على العمل فى الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره . وبرعوا . وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه وكان ارباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عـدد قليل وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكرى وخيرى باشـا ومحمد باشا سيد احمد على ضعف فيه . ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه . ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون فى المراسلات الخاصـة واما مصنفون فى بعض الفنون العربيـة او الفقهية وما شاكلها . ومن عشر سنوات ترى كتبة القطر المصرى لا يشق غبارهم . ولا يوطأ مضمارهم . واغلبهم احداث فى السن شيوخ فى الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه او عن احد تلامذته او قلد المتصلين به . ونكر ذلك مكابر وللحق مذابر » .

ومما يبين سعة أفقه انه أيد ترجمة سليمان البستانى للالياذة بناء على اقتراح يعقوب صنوع . وتمنى لو أن علماء المسلمين قاموا بذلك من أيام .

وقد عدد الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابة « عصر اسماعيل » اثنى عشر صحيفة سياسية كان السيد جمال الدين يشرف على تحرير اقوى ست فيها فكان هنــاك مجلة مصر . والتجارة يحررهما ويديرهما أديب اسحق وسليم نقاش تلميذا جمال الدين ومرآة الشرق لصاحبها سليم عنحورى وكان يحررها ابراهيم اللقانى تلميذ السيد ومجلتى مرآة الأخوان وأبو نضارة لصاحبهما يعقوب صنوع الاولى صدرت فى لنــدن سنة ١٨٧٦ والثانية فى القاهرة سنة ١٨٧٧ وكان الشــيخ يعقوب صنوع مصريا اسرائيليا متعلقا بالصحافة يميل الى الدعابة فى كتابته ، واتصل بالسيد جمال الدين الافغانى . وقيل انه هو الذى أوعز اليه اصدار جريدته لانتقاد سياسة اسماعيل فاصدرها . وكانت اول جريدة هزلية سياسية صدرت فى مصر » .

وهذا كله فضلا عن صحيفة العروة الوثقى التى اصدرها فى باريس . وكان يشرف على تحريرها الشيخ محمد عبــده ، فلو قلنا أن السيد جمال الدين الافغانى يستحق لقب الصــحافى الاول فى مصر لما كان فى ذلك مبالغة أو اسراف (١) .

وقد صدرت العروة الوثقى فى باريس فى المدة من ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ حتى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨٤ وخلال هذه المدة اصدرت ثمانية عشر عددا وشنت حملة شعواء على الاحتلال البريطانى فى مصر والسودان .

ووصف السيد رشيد رضا أثر العروة الوثقى :

(١) الى هنا انتهى مقال مجلة الدعوة ، وما بعده اضيفة من كتابنا « الدعوات الاسلامية المعاصرة ما لها وما عليها » .

... « اننى لا ازال أتذكر انه كان بدارنا فى القلمون بجوار طرابلس الشام وفى سنة ١٣٠٢ هـ — ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى المشهور وقد وضع بين يديه مصباحا من مصابيح زيت البترول وأنشأ يقرؤها بصوت جهورى كأنه خطيب وانما كان يقف عند بعض الجمل ليعبر بها عما يخالجه من شعور العجب ولم يتركها حتى أتى على آخرها ولم أكن فى ذلك الوقت اعنى بشىء من مثل هذا بل كانت تلك السنة هى السنة الثانية لاشتغالى بطلب العلم » ..

واستطرد :

« كنت مرة ابحث فى اوراق والدى العتيقة اتصفح ما فيها من الجرائد المطوية فعثرت على أعداد من العروة الوثقى فطفقت اقرؤها المرة بعد المرة وهى تفعل فى نفس فعلها تهدم وتبنى وتعد وتمنى وما كان وعدها الا حقا ولا تمنيها الا رجاء وأملا .

انشأت بعد ان ظفرت بتلك الاعداد ابحث عن أخواتها فى طرابلس فكنت اجد عند الرجل العدد وعند آخر العددين فانسخ ما أجد ثم علمت أن الشيخ حسينا الجسر احتواها كلها ومن عنده أتممت أستنساخها فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بى فأحدث فى نفسى من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بى من طور الى طور ومن حال الى حال والذى علمته من نفسى بالخبر ومن غير الخبر ومن التاريخ انه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها من اصابة موقع الوجدان من القلب والاقتناع من العقل ولا حد للبلاغة الا هذا » .

سمعت من أستاذنا الشيخ حسين الجسر عالم سوريا الوحيد فى الجمع بين العلوم الاسلامية ومعرفة حال العصر السياسية يقول « ما كان أحد يشك فى أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما فى العالم الاسلامى لو طال عليها الزمان ».

وسمعت من محمد بك على المؤيد يقول « كنت فى بغداد فى عهد صدور العروة الوثقى وكانت ترسل الى الزعيم العربى الاكبر فى العراق السيد سلمان الكيلانى نقيب السادة الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها « يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجىء العدد الذى بعد هذا » .

ولم تكن العروة الوثقى لتقنع بمقالاتها الملتهبة ولكنها كانت توفد رسولا الى مختلف الاقطار الاسلامية ليحملون التعليمات التى لا يمكن نشرها أو يقومون بمهام اخرى ومن ذلك ايفاد الشيخ محمد عبده « المحرر الاول لهذه الجريدة » الى لندن للتشاور مع المستر بلانت وبعض الانجليز المتعاطفين مع الدول العربية والاسلامية ولحمل الانجليز على ترك السودان وغير ذلك .

ولسنا فى حاجة الى القول أن الحكومات اوصدت ابوابها فى وجه العروة الوثقى وحرمت دخولها وكان هذا احد الاسباب التى عجلت بنهايتها .

وقيل ان « العروة الوثقى » كانت علما على جمعية سرية كما كانت علما على جريدة وقد اختير أعضاء هذه الجمعية بدقة ووضع لها يمين غليظ كان على كل عضو أن يقسمه ويتعهد « أن يبذل ما فى وسعه لاحياء الاخوة الاسلامية وانزالها منزلة البنوة والأبوة الصحيحتين — والا يقدم الا ما قدمه الدين والا يؤخر الا ما أخره الدين ولا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا أو كليا الخ .. » ويرى أحد الكتاب المتخصصين فى هذا

المجال من الدراسات (١) أن تنظيم العروة الوثقى امتداد للحزب الوطني الحر الذى أسسه جمال الدين فى مصر وسبقت الاشارة اليه كما يرى ان القضية العربية بالذات كانت من أهم دواعى تكوينه واكثر مجالات انشغاله وعمله .

ويرى هذا الكاتب أن هناك اضافة « هامة وجوهرية قدمها الافغانى الى يقظة الشرق وثورته تتعدى رسم الاهداف والعمل لتنفيذ هذه الأهداف . وهذه الاضافة تتعلق بالاسلوب الجديد الذى دعا اليه الرجل ومارسه كى يحقق بواسطته هذه الاهداف وهو أسلوب « التنظيم السياسى السرى » وتكوين الاحزاب والمنظمات السرية وهى تنظيمات استحدثها الرجل على حياة الشرق السياسية فى عصره وكانت التجارب الاولى لشعوبنا فى القرن التاسع عشر » .

وفى رأى هذا الكاتب أن السيد الافغانى « اراد أن يستفيد من الماسونية كاطار للعمل والحركة وكواجهة شرعية للتنظيم الذى يريد اقامته من أجل الثورة فى مصر على الاستبداد ونفوذ الاستعمار وأن هذه الفكرة كانت وراء دخوله الماسونية أولا ثم انشائه محفلا ماسونيا خاصا جعله تابعا للمحفل الشرقى الفرنساوى وكانت رئاسته العلمية للافغانى ، ومن ثم كان تنظيما خاصا لا أثر فيه للماسونية سوى الاسم فقط وقد أختار الافغانى فى تنظيمه الجديد هذا صفوة مختارة من قيادات مصر الفكرية والسياسية والعسكرية فى ذلك الحين ، وقسم هذا المحفل الى شعب عديدة تقوم كل منها على اعداد اعضائها كمتخصصين فى

---

(١) الاستاذ محمد عماره فى مجلة الاذاعة بعنوان « قصة الحزب الوطنى الحر اول حزب ثورى سرى فى تاريخ مصر السياسى — الصفحات من ١٤ — ٢٤ .

جانهم فكانت هناك شعبة للضباط المصريين تستهدف تثقيفهم فكريا وسياسيا واعدادهم لكسب المعركة التى كانوا يخوضونها فى الجيش ضد الضباط الشراكسة والاتراك وشعبة اخرى للعدل (الحقانية) وثالثة للمالية ورابعة للاشغال الخ أى أن هذا التنظيم كان مرحلة من مراحل اعداد « الكوادر » المصرية الوطنية كى تتمرن فى الحكم والسياسة بمختلف أبعادهما وتتخصص فيه وذلك تمهيدا لمرحلة تحقيق الشعار الذى كانت تنظيمات الافغانى السرية فى مصر أول من رفعته وناضلت فى سبيله شعار مصر للمصريين » .

وسواء اخذ عمل الافغانى هذا التصور أو لم يأخذه فالمحقق انه أول من رفع اسم « الحزب الوطنى الحر » وأن الطموح وصل بهذا الحزب الى التفكير فى احلال نظام جمهورى محل نظام الخديوية .. وقد يصور مدى هذا التفكير ما رواه محمود سامى البارودى فى ١٨ يونيو ١٨٨٢ فى منزل حسن العقاد بحضور عرابى وعبد الله نديم والشيخ محمد عبده .. « لقد كنا نريد منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا ويليها الحجاز ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمنهم ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » .

وقد كان من المبررات التى ساقها أعوان الاستعمار لتأليب توفيق عليه انه يدعو الى شىء كهذا كما تضمن البلاغ الرسمى عن نفيه أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » ومن ذلك أن العمل السياسى السرى للسيد قد استمر حتى بعد الثورة العرابية وأن جمال الدين أوفد محمد عبده الذى كان منفيا فى بيروت أثر الثورة العرابية ليذهب الى السودان ويقابل المهدى تمهيدا لزيارة جمال الدين نفسه

وذهب محمد عبده الى مصر متنكرا وكتب من هناك الى صديق له يقول «. واذا رأيت فلانا فنبئه أن قوة الاتحاد فى الجنوب أفزعت قوة النيران فى الشمال وأن نيران القلوب أذابت مدافع الكروب » ولكن المهدى مات قبل أن يذهب الشيخ محمد عبده الى السودان ففشلت الخطة .

وشملت دعوة جمال الدين الأفغانى معظم دول العالم الاسلامى ووضعت بذورا فى فارس والهند والعراق بالاضافة الى مصر وقد يصور ذلك الاشارة الى واقعة واحدة فقد منح شاه فارس ناصر الدين شركة انجليزية حق احتكار التنباك فكتب جمال الدين الى كبير المجتهدين الشيخ ميرزا محمد حسن الشيرازى يوضح له مغبة ذلك وما يترتب عليه من تدخل فى اقتصاد فارس فاصدر الشيخ فتوى بتحريم استعمال التنباك الى أن يلغى الامتياز وأضرب الشعب عن استخدامه وروى أن الشاه طلب نارجيلته فقيل له ان المفتى حرم التنباك واضطر الشاه لالغاء الامتياز ودفع الى الشركة تعويضا وبهذا خلص الشعب الايرانى من ويلات الاحتكار الاقتصادى والتدخل الاجنبى .

وكان للسيد رأى سيء فى الشاه تحول الى عداوة مريرة عندما دعاه الشاه للاصلاح فى طهران ثم نكث وأبعده بطريقة فظة فشن السيد حملة شعواء عليه وأصدر فى لندن جريدة باسم « ضياء الخافقين » خصصها للتنديد بالشاه وفضح سوءات حكمه من ارتشاء واستبداد الخ .. وقد رأى الاستاذ أحمد أمين (١) أن هذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين « اذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى العروة الوثقى وكيف استباح

---

(١) زعماء الاصلاح للاستاذ أحمد أمين .

أن يفضح هذه العيوب ويغسل هذه الاثواب القذرة على مشهد من كل الناس » ونحن لا نوافق الاستاذ أحمد أمين ـ فلا بد من فضح الاخطاء ويجب أن لا يحول دون ذلك حائل لأن السكوت عليها سيؤدى الى تفاقمها ولأن فضح أخطاء الشاه فى لندن كان وحده كفيلا بجعل الحكومة تقلع أما المحظور الذى أشار اليه الاستاذ أحمد أمين فكائنا ما كان ضرره فان ضرر السكوت عليه أعظم خاصة وأن جمال الدين لم يقف هذا الموقف بادىء ذى بدء وانما بعد ان تنكر الشاه لعهوده بتحقيق الاصلاح .

ويعد السيد جمال الدين الافغانى الاب الروحى لمعظم الدعوات الاسلامية أما عن طريق الاستثاره والكتابة وأما عن طريق تلاميذه وبوجه خاص محمد عبده وشكيب أرسلان اللذين أثريا العالم الاسلامى بالكتابات الغزيرة والجمة والاتصالات المباشرة والحية ويمكن أن نرسم تسلسل دعوة جمال الدين منه الى محمد عبده ومن محمد عبده الى رشيد رضا صاحب مجلة المنار التى ظلت لمدة ٣٧ عاما تصدر أعدادها الشهرية بانتظام ويكتب فيها محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وتسجل ثورة الترك والعرب فضلا عن تفسير القرآن والعديد من كتابات الشيخ رضا التى جمعت فى كتب ورسائل ، ومن المنار الى الاخوان المسلمين الذين تولوا اصداره لمدة وجيزة بعد وفاة الشيخ رشيد رضا ..

صحيح ان دعوة الشيخ جمال الافغانى لم تكن على يد هؤلاء الاتباع أو الدعاة الذين خلفوه كدعوته هو فبعضها كان اصلاحيا وليس ثوريا وبعضها كان جزئيا وليس شموليا ، والحقيقة أن تركة السيد كانت أعظم من أن يقوم بها كاملة فرد واحد أو هيئة واحدة وأخذت الهيئات والافراد منها ما كانت مهيأة لحمله.

***

لقد عرضنا بشىء من الاسهاب دعوة جمال الدين الافغانى للمبررات التى أشرنا اليها لانه كان رائد الدعوات الاسلامية التى ظهرت فى العصر الحديث حتى الآن ولأن نهاية جمال الدين تكشف عن حقيقة مأساوية ..

فكيف أمكن لأدهى الدهاة — السلطان عبد الحميد — أن يستدرج اشجع الشجعان — جمال الدين ؟ وكيف أمكن لثعلب السياسة أن يستنزل نسر الحرية وأن يحبسه فى قفص من ذهب حتى يقتله الاسر ؟ .

يغلب أن يعود هذا الى عرق عاطفى يكمن فى نفسية الدعاة الاسلاميين ويخرج بهم فى كثير من الحالات عن المنطق العقلى البارد الذى يتطلبه الموقف .



الباب الثالث

قصة الدستور المصرى

من ١٨٦٦ إلى ١٨٨٢

نشرت اولى مقـالات « قصـــة الدسـتور المصرى » بمجلة الدعوة فى عدد (١ أغسطس سنة ١٩٥٣ (١ ذو الحجة ١٣٧٢) تحت مقدمة جاء فيها « رأينا والبلاد بصدد وضع دسـتور جديد لها ، ان نقدم الى القراء فى سلسلة من المقالات التى يدبجها الاستاذ جمال البنا قصـــة الدستور المصرى والمراحل التى مرت بها التجربة الدستورية ابتـداء من الحملة الفرنسـية حتى دستور ٢٣ و ٣٠ وما فى اطواتها من عظـات ودروس يجب ان يلم بها الشعب ، وهو يستقبل الدستور الجديد » .

وبعد اربع حلقات من هـــذه السلسلة . افتقدت السياق لعدم وجود حلقتين عن دستور ١٨٧٩ و ١٨٨٢ ، فاضطررت الى كتابتها من جديد — ثم عدت الى الحلقات المنشورة ، وهما حلقتان . كانت الاخيرة منهما فى ٢٠ اكتوبر ١٩٥٣ .

ولســـت متأكدا ، وقـد مضى قرابة اربعين عاما ، لماذا لم تستمر الحلقات حتى دسـتور ٢٣ و ٣٠ ، وهل انا الذى تقاعست او جـد للمجلة ما جعلها تقف عند هذا الحد . على كل حال رايت ان اقف عند هذه الحلقة الاخيرة لانها الاخيرة فى القرن التاسع عشر . وبقية مقالات الكتاب كلها فى هذا القرن .

ويوضــح الفصــل ان المجتمع المصرى كان بتأثير بسياسة محمد على ، ومن بعده اسماعيل باشا قد بدأ يقع فى ايدى البورجوازية المصرية الصــاعدة التى تكونت من ملاك ، ومهنيين ، وتجار مصريين تستهدف الليبرالية والقومية التى تتناسب مع مصالحها واهدافها ، ولم يكن ينقصها بالطبع الوطنية التى تعد احــد مكونات القومية الليبرالية ولكنها تبتعد عن المثل السياسى لحكم القانون ، الذى يكون على افضلة فى «الشرع» لانه بجانب مزايا حكم القانون فانه يكفل حمــاية للفقراء والضــعفاء من « حرية » الاســتغلال وقد تكللت مسيرة هذه البورجوازية اخيرا بالنجاح بصدور دستور سنة ٢٣ الذى يمثل « الليبرالية» التى تنشدها افضل تمثيل .

وليس معنى هــذا ان المرحلــة قــد قطعت صلاتها بالاسلام كمفوم سياسى ، فاننا نجد هنا وهنــاك ، وفى غضــون الوقائع ، ما ينم عن صلة به — ولحظ لتوجيهاته . ولكن هناك فرقا بين أن يلحظ .. وبين أن يكون محورا واساسا.

كما أن اثر جمال الدين الافغانى واستثارته واضحة تماما فى الانتقال من استخذاء دستور سنة ١٨٦٦ الى فعالية دستور سنة ١٨٧٩ .
وعلى كل حــال . فمقارنة دســتور ١٨٧٩

بالدساتير التى وضعت لمصر ابتــداء من ١٩٥٢
حتى الآن توضح أن دستور ١٨٧٩ افضل منها
فهو لم يصدر كدستور ٢٣ كما او كان منحة من
الملك ٠ واننا للاســف الشــديد لــم نتقدم ،
بل تاخرنا وتخلفنا وتقهقرنا الى عهــد ((واى
النعم)) ولو بصورة مقنعة ٠ فاذا لم يكن المجلس
النيابى سلطة مراجعة الميزانية كاملة ومساءلة
الوزارة وسحب الثقة منها ، فانها لا تكون مجالس
نيابية حاكمة ، ولا تمثل سيادة الشعب ، أو
حكم القانون ٠٠

***

— ١ —

تبدأ مقدمة الدستور المصرى الحديث بالحملة الفرنسية على هذه البلاد وطريقة الحكم التى أراد نابليون ان يدخلها وما تلاها من تطورات انتهت بظهور مجلس شورى القوانين فى عهد اسماعيل الذى تطور الى دستور سنة ١٨٧٩ .. وهو أول دستور مصرى تتحقق فيه أصول الشورى ومسئولية الوزارة امام المجلس المنتخب من الامة .

حقا لقد كان نابليون دخيلا على البلاد ، قاهرا لها ولم يكن من المنتظر ان يقدم دستورا حرا ولكن مما يستحق الذكر دون ريب نظامه الذى وضعه للحكم بطريقة الديوان ، وجعل هذا الديوان من الاهالى والطريقة المنتظرة التى عمل بها ، واتخاذ الانتخاب وسيلة والاغلبية حكما ، ومنح الاعضاء مهايا منتظمة من مالية الدولة ..

قد كان هذا كله — على قلته جديدا على المجتمع المصرى .

وقد انشىء هذا الديوان بمقتضى أمر اصدره نابليون ووضح به اختصاصاته وهذا نصه :

معسكر القاهرة فى ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ يولية سنة ١٧٩٨) .

بونابرت عضو المجمع العلمى الاهلى والقائد العام للجيش يأمر بما يلى :

اولا — تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة اعضاء .

ثانيا — يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الاشراف ومحمد الامير ، وعليهم أن يجتمعوا اليوم فى الساعة الخامسة مساء فى منزل

كخيا الشاويشية وعليهم ان ينتخبوا من بينهم رئيسا لهم وان يختاروا سكرتيرا من غير الاعضاء ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الاغوات لادارة البوليس وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الاسواق وتموين المدينة ولجنة من ثلاثة اخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها الى فرسخين منها .

ثالثا — يجتمع الديوان كل يوم من الظهر ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس .

رابعا — يقيم على باب الديوان حرس فرنسى وآخر تركى .

خامسا — على الجنرال برتيه وقومندان المدينة أن يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء ما يلزم لاعضائه . « ولكي يأخذ عليهم عهدا الا يعملوا شيئا ضد مصلحة الجيش » ..

ويفهم من هذا الامر اختصاصاته والتزام اعضائه بان لا يعملوا عملا ضد مصلحة الجيش .. وهو أمر طبيعى من نابليون ..

وقد أمر نابليون كذلك بتشكيل دواوين فى كل بلد على غرار ديوان القاهرة كما دعا الى الاجتماع جمعية عامة تمثل اعيان بلدها واطلق عليها الديوان العام (تمييزا لهـا عن ديوان القاهرة) وشملت مندوبين من الاسكندرية ورشيد ودمياط والبحيرة والغربية والمنصورة والشرقية والمنوفية والقاوبية والجيزة وإطفيح وبنى سويف والفيوم والمنيا وأسيوط وجرجا وشمل مندوبو كل مديرية ممثلين من الاهالى والتجار والعلماء .

وجاء فى رسالة نابليون الى مونج وبرتوليه عضوى المجمع اللذين أختارهما قوميسرين بالمجلس ما يلى :

« ان الغرض من عقد الديوان العام هو تعويد الاعيان المصريين نظم المجالس الشورية والحكم ، فقولوا لهم انى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية وما يفكرون فى عملة اذا كان لهم حق الفتح الذى حزناه فى ميدان القتال ..

اطلبوا من الديوان العام أن يبدى رأيه فى المسائل الآتية :

اولا — ما هو اصلح نظام لتاليف مجالس الديوان فى المديريات وما هو المرتب الذى يجب تحديده للاعضاء .

ثانيا — ما هو النظام الذى يجب وضعه للقضاء المدنى والجنائى .

ثالثا — ما هو التشريع الذى يكفل ضبط المواريث ومحو انواع الشكاوى والاجحاف الموجود فى النظام الحالى .

رابعا — ما هى الاصلاحات والاقتراحات التى يراها الديوان لاثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب .

ويجب ان تفهموا الاعضاء اننا لا نقصد إلا الى توفير السعادة والرفاهية للبلاد التى تشكو من سوء نظام الضرائب الحالى كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا للديوان نظامه الداخلى كما يأتى :

ان ينتخب الاعضاء رئيسا له . ونائب رئيس وسكرتيرين مترجمين اثنين وثلاثة مراقبين . وأن يكون ذلك بطريقة الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب وعليكم أن تتبعوا المناقشات وتدونوا اسماء الاعضاء الذين يمتازون عن زملائهم فى الديوان سواء بنفوذهم او بكفايتهم » .

وقد نقل الجبرتى كيفية انتخاب الرئيس فى قطعة طريفة قال :

« قال الترجمان نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيسا عليكم ممتثلين امره واشارته فقال بعض الحاضرين :

« الشيخ الشرقاوى » فقال نو نو — لا .. لا .. — وانما يكون ذلك بالقرعة فعملوا قرعة بأوراق فطلع الاكثر على الشيخ الشرقاوى .

فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس فما تم هذا الامر حتى زالت الشمس فاذنوا لهم فى الذهاب » .

وقد اخذت آراء الديوان فى المسائل التى ذكرها نابليون فى خطابه . ومع أن رأى المجلس استشارى الا أن نابليون تعود أن يأخذ برأيه أو يتولى تنفيذه وقد اقترح المجلس اقتراحات فى نظم الديوان . والنظام القضائى والمدنى والجنائى وتشريعات المواريث وتسجيل عقود الملكية الخ ...

وقد الغى ديوان القاهرة عقب ثورتهـا الاولى « فى ٢١ اكتوبر سـنة ١٧٩٨ » ثم أعيد بعد شـهرين بعد أن نقح فى نظـامه فجعـله من ديوانيين العمـومى : والخصوصى : اما العمومى فهو مؤلف من ستين عضوا عينهم الفرنسيون من أعيان المصريين ووكل الى هـؤلاء انتخـاب رئيس الديوان واثنين من السكرتيريين . وينعقد لمدة ثلاثة أيام ابتداء من ٢٧ ديسمبر ، ثم ينفضى ولا ينعقد الا بدعوة من حاكم العاصمة .

اما الديوان الخصوصى فهو يتكون من اربعة عشر عضوا ينتخبهم الديوان العمومى بالاغلبية النسبية ويجتمع كل يوم . وينتخب الاعضاء رئيسا وسكرتيرا . ورتب لرئيس الديوان الخصوصى وأعضائه رواتب شهرية « للرئيس مائة ريال شهريا ولكل عضو ثمانين ريالا ولكل مترجم ٢٥ ريالا » .

وكان اعضاء هذا الديوان — هم — من العلماء الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ سليمان الفيومى .

ومن التجار السيد أحمد المحروقى والسيد احمد محرم ومن الاقباط المعلم لطف الله المصرى ، ومن السوريين المعلم ابراهيم جر العياط — يوسف فرحات — ميخائيل كحيل .. ومن الاوروبيين : المسيو كاف — والمسيو بودوف .. وهما تاجران فرنسيان — والمسيو ولمار وهو طبيب سويدى الاصل كان يقيم بالقاهرة ..

وقد ظل الديوان بهذا النظام طيلة عهد نابليون وكليبر ومينو حتى آخر جلسة له فى عهد هذا الاخير قبل جلاء الفرنسيين فى ٦ يولية سنة ١٨٠١ تلا فيها مسيو استيف مدير الشئون المالية خطبة طويلة فى الدفاع عن الحكم الفرنسى والتعبير عن آماله الخيرة لمصر .. ولما انتهى من تلاوة الرسالة قال الاعضاء ان الامر لله ، والملك له . وهو الذى يمكن منه من يشاء !

وبذلك طويت هذه الصفحة من حكم الديوان بعد ان افادت — على ما فيها من عيوب ونقص — زعماء الشعب وعلمائه حنكة وتجربة سنلمس اثرهما فى الصفحات التالية (١) .

---

(١) نشرت بمجلة الدعوة — العدد الصادر فى ١١ اغسطس سنة ٥٣ (١ ذو الحجة ١٣٧٢) ص ١٢ .

ـ ٢ ـ

طويت صفحة الديوان الذى أسسه الفرنسيون بخروج جنودهم من مصر وعاد الاتراك والمماليك الى البلاد يريدون أن يعيثوا فيها فسادا بينما ظهر الانجليز يتربصون بالاتراك والمماليك وجهل الجميع أن الحملة الفرنسية قد ايقظت الشعب .. وأن الأمة وقد ثارت مرة على نابليون .. واخرى على كليبر .. وظهرت فيها زعامات شعبية ، واسلامية .. وتمرست بشئون الحكم .. لن تقبل الوضع القديم .. ولكن الذى فهم هذا هو ـ للمفارقة العجيبة ـ محمد على قائد الفرقة الالبانية .. فجعل همه التقرب الى الشعب وتوثيق العلاقة بينه وبين الشيوخ ثم رتب سلسلة محكمة من عمليات التحالف والغدر بكل حليف بعد تحقيق الغرض المقصود من التحالف معه ، منفذا فى كل حلق أوثق الطرق .. وغادرا بكل حليف شر الغدرات .. تآخى مع البرديسى .. بأن جرح كل منهما نفسه وشرب من دم أخيه .. ثم غدر بالبرديسى فشرده حتى مات مقهورا .. ثم اقسم للمشايخ والسيد عمر مكرم أن يحكم بمشورتهم وما لبث أن استأثر بالحكم وفرقهم ونفى السيد عمر مكرم الى دمياط .. حتى الالبان .. بنى جلدته وعشيرته لم يسلموا من غدره .. فبعد أن امسك اثنان منهم بحسام محمد على من طرفيه ، ومداه .. ومر جميع القواد فوقه واحدا فواحدا وهى عادة البانية تحفظ العهد حتى الموت .. انقلب على الالبان انفسهم ! .. فصدرهم للموت فى الغزوات .. ورحلهم الى فلوات الحجاز للتخلص منهم .. ولا عجب فمحمد على هو القائل « اننى لا احب سوى نفسى وما يتفق ومصالحى بل اننى لا احب ابنائى انفسهم الا اذا كان من ورائهم خير » .

ثار الشعب بقيادة علمائه على آخر باشا تركى وهو خورشيد . وبينما كان صناع القاهرة وشعبها يحاصره فى القلعة ، كان العلماء يكتبون الى الاستانة برغبتهم فى عزله وتولية محمد على . ولم ينتظروا صدور هذا الامر بل نفذوه بأنفسهم ، فارسلوا الى خورشيد يعلنونه بانهم عزلوه ... وذهبوا الى محمد على فاعلنوه بانهم اختاروه واليا والبسه الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد عمر مكرم « كرك » الولاية .. بعد أن اخذا عليه العهود والمواثيق ليحكمن بالعدل والشورى .

وتم الامر كما اراد الشعب . فبعد أن استنكف خورشيد من ان يعزل بأمر الفلاحين .. جاءه الامر من الاستانة بالعزل فاذعن للامر وغادر القلعة .. وطويت بذلك صفحة باشوات الاستانة كما طويت من قبل صفحة الحملة الفرنسية .

كان المنتظر ، وقد حكم محمد على بفضل الزعامة وقوة الراى العام .. وسواعد الجماهير .. وبعد ان تعهد بالتزام العدل والشورى ان يشرك الشعب فى الحكم فضلا عن ان يخضع له . ولكن محمد على كان داهية باقعة ، فاعاد مع العلماء والشعب ما فعله مع المماليك والاتراك واستطاع ان يفرق وحدة الزعماء .. واصطنع الشيخ المهدى والدواخلى ليكونا معول الهدم والتفرقة .. وناصب السيد عمر مكرم العداء ولكن فى دهاء واستطاع بفضل مؤامرة متقنة ان يظهره بمظهر الرافض لاحكام العدل .. وان يحمل القاضى والمشايخ على عزله من نقابة الاشراف ونفيه الى دمياط .. وتولية السيد السادات محله ...

واتخم العلماء بالاموال والمناصب والاراضى — التى اعفاها مؤقتا من الضرائب — حتى شغلوا بهـا عن رسالتهم الشعبية المقدسة .

ان المتتبع لاحداث هذه الحقبة ليخرج منها بدرس عميق يدوي فى اذانه .. هو انه مهما كان الحاكم فى البداية صالحا فان الضمانات الملزمة هى وحدها التى تديم صلاحيته ... وان أى اهمال لهذه الضمانات ... يؤدى به الى الاستبداد .. وان المثل الذى يقول « المال السايب يعلم السرقة » ينطبق أيضا على حقوق الشعب .. فما ان يدع الشعب حقوقه دون حراسة او يهملها حتى يظهر الحاكم الذى يستبيح سرقتها .

دواوين الحكومة

كان محمد على اذن يريد الاستئثار وفرض الحكم الفردى ولكنه — وهو الذكى — كان يعلم انه لن يستطيع ان يلم بكل كبيرة او صغيرة من الشئون لهذا ابتدع نظام الدواوين الحكومية وهناك فرق كبير فى دلالة كلمة « ديوان » فى عهد الحملة الفرنسية . ودلالتها فى عهد محمد على . فقد كانت فى الاولى مجلسا شعبيا يطبق الاقتراع فى انتخاب رئيسه وسكرتيره ويناقش الشئون العامة . ولكنه فى عهد محمد على كان جهازا يتكون من كبار الموظفين . وكان كل ديوان يناقش اختصاصه فحسب .. فالديوان ما هو الا لجنة وزارية تقدم التقارير الى الباشا المستبد ليدرسها .. وينتهى الى رأى ..

وعن هذه الفكرة عمل محمد على شطرا كبيرا من مدة حكمه حتى صدر القانون الاساسى سنة ١٨٢٧ المسمى « سياستنامة » فوضع الشكل الاخير للدواوين وحصرها فى سبعة هى الديوان الخديوى — وديوان الايرادات — وديوان الجهادية — وديوان البحر — وديوان المدارس — وديوان الامور الافرنكية ، والتجارة — وديوان الفابريقات . وكان مفروضا على رئيس كل ديوان أن يقدم تقريرا فى يوم الخميس من كل اسبوع للباشا .

مجلس المشـــورة

ولكن محمد علي وجد أن من الضروري الى جانب هذه الاداة التنفيـذية أن يكون على نوع من الاتصـال بقيـادة الشـعب ، ولو حتى لتخدير حواسه ، وخداعه عن حقوقه وبتدبير أعماله .. لذلك اوجد ما يسمى مجلس المشورة سنة ١٨٢٩ وجاء فى الوقائع المصرية نبأ تشكيل هذا المجلس فى العدد الصادر فى ٤ من ربيع الاول سنة ١٢٤٥ هـ - الاحد ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ - كالآتى :

ان حضرة افندينا ولى النعم الاكرم منبع الشفقة والمراحم ما برح متفكرا فى عمار الملك والملة وفى راحة اهالى الامصـار والبلاد ورفاهية الرعايا والعباد ، ولايزال يتصور تحصيل أسباب الامور الخيرية ساعيا ومجتهدا فى استخراج اسبابها من القوة الى الفعل ولاجل ذلك أوصى حضرة افندينا ابراهيم باشا ولى النعم قبل أن ارسله من الاسكندرية الى مصر بأن يجمع مأمورى الاقاليم المصرية العظام ومشايخ البلاد الكرام وينعقد مجلس المشـورة كل يوم ويبدى كل منهم ما فى باله ويقولون مرادهم من غير تعصب وعناد أى لا يمارون بما يرون بل يقولون على وجه الحق والانصاف لينتج منها تلك القضية الخيرية فيحصل رضاه السنى وأمر ايضا بأن يجتمع فى ذلك المجلس اشراف العلماء المصرية لكى لا يبـدو انحراف عن تلك الاصول المستحسنة التى يراد تأسيسها على جادة الشريعة المطهرة فاجتهد سعادة المشار اليه بتحصيل رضا سعادته بما كان مفطورا عليه من حسـن السـعى والاجتهـاد حيث جمع المذكورين كلهم الى قصره العالى بعد مضى يومين من وقت تشريفه مصر وأوضح لهم ما سمعه من ابيه الاكرم من درر الوصايا والنصايح فلذلك انعقد المجلس فى القصر العالى فى اليوم الثالث من شـهر

ربيع الاول بعد العصر وسال كل منهم عما لاح فى ضميرهم وتقرر ان يضبط الوقايع فى كل ما يجرى فى ذلك المجلس » .

وكان مجلس المشورة يتكون من ١٥٧ عضوا منهم ثلاثة وثلاثون من الاكابر ورؤساء مصالح الحكومة والعلماء واربعة وعشرون من مأمورى الاقاليم ومائة من مشايخ الاقاليم وكان ينعقد مرة فى السنة لا كل يوم كما جاء بالوقائع . وسبب هذا اللبس هو النشأة التاريخية لمجلس المشورة اذ كان أصلا هو المجلس العالى أو الخديوى الذى أسس سنة ١٨٠٥ وكان ينعقد فى القلعة ، ويراجع يوميا كافة الشئون .. وكان يسمى فى بعض الاحيان ديوان المعاونة أو شورى المعاونة ثم ارتؤى بعد ذلك أن يكون فى المجلس عالمان، وتاجران ، وشيخ من كل مديرية .. وما لبث ان اخذ الشكل الاخير واصبح ينعقد مرة فى السنة .

وانعقد مجلس المشورة فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩ برياسة ابراهيم باشا فى سرايه بالروضة ، وعقد اجتماعه الثانى ايضا فى المكان نفسه فى المدة من ١٩ سبتمبر الى ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٣٠

وقد اثبت صاحب تقويم النيل قائمة كاملة بأسماء أعضاء مجلس المشورة لا نرى حاجة لاثباتها . وانما نكتفى بايراد ملاحظة هى بروز العنصر التركى واستئثاره بالمناصب الكبرى وحصوله بذلك على المراكز الحيوية فى المجلس .

وقد أورد مؤلفو كتاب « بناء دولة » نص ما يمكن أن يوصف بأنه خطبة القاها الباشا فى أعضاء مجلس المشورة الذى انعقد سنة ١٨٤٧ .

بدأ الباشا خطبته بقوله « حيث انى رأيت فيكم بعض الشواهد النافعة المتعلقة بتهييج الحمية والحرارة فى حركاتكم منذ

بضع سنين ، ولاحظت الصلاحية في ذاتكم لقبول النصيحة جمعتكم الآن عندى جميعا ، وبادرت الى المقصود » .

وبعد أن تحدث فى لغة سقيمة ، مملة . عن هذا المقصود وهو التقدم والاجتهاد وحثهم على اطراح الكسل والتقاعد قال :

« فلتعلموا انى قد ناهزت الثمانين ولست فى تمنى شىء لنفسى . بل كان تركى للنوم والراحة وبذلى لاجتهادى ليلا ونهارا انما هو من أجل سعادتكم واصلاح حالكم . وحيث أنى قد ربيتكم جميعا من صغر سنكم ، وعلمتكم القراءة والكتابة فى المكاتب واوصلتكم الى ما أنتم فيه من الدرجات وقبلتكم أولادا لى ، وصرت لكم أبا بحق ، وجب انكم لا تمتنعون من قبولى أبا لكم بل تقبلوننى .. »

فنحن نرى فى هذه القطعة من الحديث أن المجلس هو الذى كان يستمع الى توجيهات محمد على .. لا العكس وان محمد على كان يرى انه هو الذى علمهم فى المكاتب واوصلهم الى الدرجات ! وان له عليهم حق الابوة فى الحكم ! وما يبيحه له من اجراءات فى التأديب والتهذيب والترغيب والترهيب .. والاستماع الى احاديثه استماع التلميذ المطيع . والابن البار وهى فى جملتها الروح التى اذا جردناها من زيف الادعاء ، وسفسطة الابوة . تصبح « الحكومة الابوية » وليس هنالك ما هو اسوء من الحكومة الابوية كما قال بحق نابليون . اذ صارت الاصل الذى تطور فى عهد فاروق لتجعل كل كلمة من كلماته توجيها ساميا .

ويستطرد الباشا فيقول :

« ان التزام المنفعة الذاتية فى الشىء المضر بمنافع العـامة والمماشاة والموافقة فى الامور المضرة بالمصلحة والاصول الموضوعية من اعظم الجرائم والقبائح التى لا يمكن الصفح عنها اصلا فيجب الاجتناب عن ذلك . حتى اذا كنت أمر احدكم شفاها أو تحريرا بقولى له اجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على ونكرنى وافادنى شفاها أو تحريرا بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة . وقد اثبت لكم مرارا كسب محظوظيتى من الاخطارات الواقعة حتى الآن التى يترتب عليهـا ممنونيتى فى أعلا درجة ، وهانا مرخص فى ذلك الرخصة التامة المرة بعد المرة » .

وهذه أيضا قطعة انشائية .. هى فى منطق العمل كالحشو فى منطق البلاغة .. لأن اعتراض الاعضاء ليس له اى ضمان .. ولا نظام .. ولا حماية من غضب الباشا .. كما انه مقيد بالخطأ الواضح الظاهر .. اما اختلاف وجهات النظر فهذا ما لم يرد به ذكر على الاطلاق . والقطعة كلها تنطق برغبة الحاكم الفردى فى الاستفادة مع عدم التنازل عن الحكم واشراك احـد فيه اشراكا حقيقيا .. وهو طابع حكم محمد على وخلفائه من بعده (١) .

(١) نشرت بمجلة الدعوة العدد الصادر فى ١٩ اغسطس سنة ٥٣ (٨ ذو الحجة ١٣٧٢) ص ١٤ .

ولعلنا كنا قاسيين فى الحكم على الفترة السابقة ، فهى لا تخلو من دلالة حسنة عندما تصدر من الحاكم .

— ٣ —

نشأة مجلس شورى النواب (فى عهد اسماعيل)

توجز كافة المصادر التاريخية ايجازا شديدا عندما تتعرض للناحية الدستورية ، أو شبه الدستورية خلال حكمى عباس الاول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وسعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) حتى لتبدو تلك الحقبة فترة من فترات الظلام والتيه . وقد تمت تغييرات فى طريقة الحكم ، ولكن هذه التغييرات خضعت للعوامل الطارئة ، وللمؤثرات الخاصة والوقتية والذاتيــة وتجردت تماما من اى اثر للفـكرة الشعبية أو الدستورية .. وأن المؤرخ النزيه ليحنق أشد الحنق عندما يتذكر ، انه فى تلك الفترة بالذات بدأت اولى جذور التدخل الاجنبى تتغلغل فى البلاد وتأخذ شكلا منظما يهدد سيادة الدولة. وما من شك فى أنه لو وجد اى نوع من أنواع الانظمة الشورية ، مهما كان بدائيا ، لما استطاع سعيد أن يجود على صديقه العزيز مسيو دلسبس بالامتيازات السخية لمحض اعجابة الشخصى .. وكرد للجميل القديم الذى كان يقوم به دلسبس الاب (قنصـــل فرنسا) عندما كان يقدم المكرونة الشهية الى سعيد السمين ! ويخالف تعليمات محمد على التى كانت ترمى الى تقشف أبنـــائه والعمل على تعودهم المشاق : ولو وجد اى نظام شورى لما أمكن أن يقترض سعيد — بسهولة وغفلة — أو أن يتورط مع الاجانب هذه الورطات التى كانت معاول الهدم فى بناء البلاد .

ولما ولى الامر اسماعيل سنة ١٨٦٣ فكر فى انشاء مجلس جديد للشورى يحل محل مجلس المشورة القديم (الذى لم ينعقد من أيام محمد على) فوضع فى سنة ١٨٦٦ اللائحة الاساسية لمجلس شورى النواب .. واللائحة الداخلية والنظامية له .

واغلب الظن ان اسماعيل انما الف هذا المجلس لا ايمانا بالنظام الشورى أو النيابى وانما تقليدا للمظاهر الغربية .

ولكن تطور الاحوال .. وتحرج المواقف .. وازدهار الحركة الفكرية جعل المجلس يكتسب حقوقا جديدة حتى أصبح فى ايامه الاخيرة مجلسا منظما يستجوب الوزارة ويستطيع ان يسقطها .

ولكى نأخذ فكرة عن منشأ المجلس ثم تطوره بعد ذلك ، نورد هنا لائحة تأسيسه ، وهى بعد ، وثيقة تاريخية لا غنى عنها لكل دارس للدستور المصرى .

المادة ١ — تأسيس هـذا المجلس مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية والتصورات التى تراها الحكومة انها من خصائص المجلس يصير المذاكرة واعطـاء الراى عنهـا وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية .

المادة ٢ — يجوز انتخاب من بلغ عمره ٢٥ سـنة وما فوق ذلك بشرط أن يكون موصوفا بالرشـد والكمـال وأن يكون من الاشخاص المعلومين عنه للحكومة بانه من الاهالى للتابعين لهـا ومن أولاد الوطن .

المادة ٣ — يحرم من صلاحية الانتخاب الاشخاص الذين حكم على اموالهم واملاكهم بأحكام الافلاس وتعلقت بهـا حقوق للغير الا أن اعيدت تلك الحقوق التى حرموا منها ، وايضا الفقراء المحتاجون والاشخاص الذين اعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة والاشخاص الذين صار مجازاتهم بالليمان والطرد بحكم .

المادة ٤ — ان الاشخاص الذين ينتخبون النواب يلزم ان يكونوا من الذين لم يحكم على اموالهم واملاكهم بأحكام الافلاس

وتعلقت بها حقوق للغير الا اذا اعيدت تلك الحقوق اليهم وان لا يكون سبق مجازاتهم بالليمان والطرد بحكم وان لا يكونوا من الاشخاص الداخلين فى سلك العسكرية .

المادة ٥ — المستخدمون فى الخدمات الميرية والمستخدمون فى الجهات الخارجية عن الميرى سواء كانوا من العمد والوجوه وغيرهم وكذا الداخلون فى سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امداديين لا يجوز انتخابهم ليكونوا من اعضاء المجلس، واما من رفتوا من المستخدمين بلا جنحة حسب الايجاب أو انقضت مدتهم من الامداديين فيجوز الانتخاب منهم ان كانوا حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة .

المادة ٦ — ان انتخاب الاعضاء من الاقاليم يلزم ان يكون على حسب التعداد . فلذا يلزم انتخاب واحد أو اثنين من كل قسم من أقسام المديريات بحسب كبر القسم وصغره ويصير انتخاب ثلاثة من مصر واثنين من الاسكندرية وواحد من دمياط .

المادة ٧ — حيث ان كل بلد عليه مشايخ معينون برغبة الاهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف اهالى ذلك البلد والنائبون عنهم لانتخاب العضو المطلوب انتخابه من القسم اذا كان « تلك » المشايخ حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة فهؤلاء المشايخ يحضرون المديرية ويكتب كل واحد منهم اسم من ينتخبه من القسم فى ورقة مخصوصة ويضعها مقفولة بالصندوق المحدد لقسمه بالمديرية .

المادة ٨ — بعدما يتم وضع الاوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضى المديرية .. فينظر اذا كان اكثر الآراء منفعة على انتخاب واحد من القسم فيصير هو نائبا عن القسم وان تساوت الآراء فى انتخاب اثنين أو ثلاثة فيقترع

بينهم بحضورهم والذى تصيبه القرعة يصير نائبا عن القسم وفى كلا الحالين يؤخذ من المشايخ الحاضرين بالمديرية من البلاد ورقة باختامهم بما استقر عليه الحال فى انتخاب « تلك » النواب واما الانتخاب فى مصر والاسكندرية ودمياط فيصير باتفاق او اكثرية آراء وجوه واعيان « تلك » المدائن .

المادة ٩ — يصير تجديد انتخاب الاعضاء كل ثلاثة سنين حسبما هو موضح بالمادة السابعة والثامنة .

المادة ١٠ — اعضاء المجلس لا يزيدون عن خمسة وسبعين شخصا .

المادة ١١ — لا يعقد المجلس اذا غاب عن اعضائه اكثر من الثلث . وان كان احد الاعضاء له عذر ضرورى فيلزم عرض عذره على رئيس المجلس قبل انعقاده بشهر فان قبل عذره بالمجلس فبها والا فان لم يحضر بعد اعلان عدم قبول عذره فيصير انتخاب غيره بدله من قسمه ووجهته حسب اللائحة .

المادة ١٢ — لا يسوغ التوكيل عن الاعضاء بل هو يحضر المجلس بنفسه .

المادة ١٣ — يصير تحقيق حال كل عضو من اعضاء المجلس حين اجتماعهم بمعرفة قومسيون فان وجد مستكمل الشروط المعتبرة المحررة فى المواد السابقة يقبل . والا فتلغى نيابته وينتخب غيره من قسمه وجهته .

المادة ١٤ — بعد ما يصير تحقيق احوال النواب المنتخبين بالقومسيون ويوجدون حائزين الاوصاف المذكورة فى المواد السابقة فيعطى قرار منهم بالقومسيون ويعرض منه على رئيس المجلس

ومنه ايضا الى الاعتاب الخديوية ليعطى كل واحد منهم — بيرولدى — يتضمن كونه منتخبا في ظرف ثلاث سنين فى شورى النواب .

المادة ١٥ — حيث من المعلوم ان كل مجلس من المجالس المماثلة لهذا له حدود نظامنامة فبالطبع حدود ونظامنامة هـذا المجلس ستعطى له .

المادة ١٦ — ان عقد المجلس سيكون في هذا العام من عشرة هاتور لغاية عشرة طوبة واما فى السـنين الآتية فيصير انعقاده من خمسة عشر كيهك لغاية خمسة عشر امشير .

المادة ١٧ — لولى الامر جمع المجلس او تأخيره او تمديد مدته أو تبديل اعضائه وانتخاب غيرهم فى مدة معلومة حسـبما هو موضح بهذه اللائحة .

المادة ١٨ — لا يجوز قبول عرضحالات من احد بالمجلس .

هذه هى اللائحة الاساسية للمجلس وقد وضع له نظامنامة كما جاء بالمادة ١٥ تتكون من ٦١ مادة .

والذى يراجع هذه اللائحة يراها تمثل اصدق تمثيل مرحلة الانتقال التى كانت تمر بها البلاد من ذيول العهد القديم ، عهد القرون الوسطى الى مشارف العصر الحديث .. ففيها تتقابل مؤخرة الاولى مع طليعة الثانية وتمتزج اللغة القديمة والتعبيرات البالية ، والتصورات العامة المبهمة برغبة التحرر من السجع التقليدى والعموميات المطلقة او القواعد التى تصلح لكل زمان ومكان ، والفاحص لها يعرف للوهلة الاولى ان مجلس شـورى النواب لا يمثل قط الصفة النيابية او الدستورية كما ينبغى أن تكون .. ففى المادة الاولى يصدم القارىء بأن اختصاص المجلس

مبنى على — التصورات — التى تراها الحكومة . وان الراى الاخير فيها للحكومة ..

وتستحق المادة الثالثة النظر من ناحية اشارتها الى عدم صلاحية — الفقراء المحتاجين ، وايضا الدين « اعينوا على حالهم» قبل الانتخاب بسنة — فان الثراء كان اهم مظاهر الوجاهة والصلاحية ..

والانتخاب على درجتين — المادة — ٦ — وهو سرى — المادة ٧ — وبالتزكية او القرعة فى الاقاليم — المادة ٨ — وبالتزكية او الاغلبية فى القاهرة واسكندرية ودمياط (المادة ٨) ومدة المجلس ثلاث سنوات (المادة ٩) واعضاؤه لا يزيدون عن ٧٥ عضوا (المادة ١٠) ويعطى كل عضو شهادة تثبت عضويته هى المسماة (بيرولدى) المادة ١٤ ويجوز لولى الامر جمع المجلس او تأخيره او تمديد مدته او تبديل اعضائه .. (المادة ١٧) وهى سلطات لولى الامر تهدم هدما سلطة المجلس لو نفذت وان لم تنفذ لحسن الحظ الا فى مدى ضيق جدا كما سنرى .

وكنا نود لو نشرنا أيضا نص اللائحة النظامية فهى عظيمة الدلالة على روح العصر لولا انها طويلة جدا بحيث لا يتسع المجال لها ، الامر الذى يجعلنا نكتفى بالاشارة الى بضعة مواد منها هامة .. فالمادة ٣ تجعل سلطة تعيين رئيس المجلس ووكيله منوطة بالخديو دون أن يكون للمجلس راى أو ترشيح . والمادة ٤ و ٥ تتحدثان عن افتتاح الخديو للمجلس بمقالة .. ويقدم المجلس جواب عنها بكتاب لا يقطع فيه بشىء من الامور التى يقتض نظرها المجلس .. ويمكن للمجلس توقيع عقوبات على المتخلفين من الاعضاء دون اذن (مادة ١٢) كما ان الاعضاء

يتمتعون اثناء انعقاد المجلس بحصانة تحول دون أن ترفع عليهم دعوى الا اذا ارتكب احدهم جريمة القتل (مادة ٥٣) وعلى أعضاء المجلس أن يحضروا بملابس الحشمة اللائقة وجلوسهم فيه يكون بهيئة الادب (مادة ٤٠) ، ولا يجوز لأى واحد منهم نشر المناقشات أو طبعها دون أذن ..

ومع هذا فلا شك ان مجلس شورى النواب كان الخطوة الحقيقة الاولى نحو المجلس النيابى الحديث وقد تطور ، واثبتت جدارته بشكل كان يرجى منه كل خير لولا الاستعمار الذى أفسد كل شيء .

وقد تمت الانتخابات الاولى فى سنة ١٨٦٦ واسفرت عن انتخاب ٧٥ عضوا ونرى من الحق التاريخى علينا ، ان نسجل اسماء الاعضاء الاول للمجلس الاول .

عن القاهرة : موسى بك العقاد — الحاج يوسف عبد الفتاح السيد محمود العطار .

عن الاسكندرية : الشيخ مصطفى جميعى — السيد عبد الرزاق الشوربجى .

عن الغربيــة : اتربى بك ابو العز — على كامل عمدة القصرية — الحاج شتا يوسف عمدة ابن مندور — محمد حمودة عمدة برما — سيد احمد رمضان عمدة قشطا — عبد الحميد زهرة عمدة حانوت — على ابو سالم عمدة مسهلة — سليمان اللوانى عمدة ميت حبيش القبلية — احمد الشريف عمدة ابيار

من المنوفية : الحاج على الجزار عمدة شبين الكوم — محمد أفندى شعير عمدة كفر عشما — موسى افندى الجندى

عمدة منوف — أحمد أبو حسين عمدة كفر ربيع — حماد أبو عامر عمدة جنزور — على أبو عمارة عمدة مليج — محمد الانبابى عمدة جزى .

عن البحيرة : الشيخ محمد الصيرفى عمدة قديشان — حسنين حمزة عمدة البريجات — أحمد دبوس عمدة نكلة العنب الحاج على عمار عمدة بيبان — الشيخ محمد الوكيل عمدة سمخراط

نواب الشرقية والقليوبية : الحاج نصر منصور الشواربى من قليوب — الامام الشافعى أبو شنب عمدة الخانكة — على حسن حجاج عمدة الرملة — محمد الشواربى — قليوب — أحمد افندى اباظة — منيا القمح — الشيخ محمد جمال الدين عمدة الجديدة — محمد عبد الله عمدة الصنافين — المعلم سليمان سيدهم عمدة بندف — بركات الديب عمدة القرين — محمد افندى عفيفى عمدة الزوامل — عبد الله عياد عمدة كفر غياد .

عن الدقهلية : هلال بك — سيد أحمد افندى نافع عمدة دنديط — محمد بك سعيد (نوسا البحر) . اسماعيل افندى حسن عمدة تمى الامديد — الشيخ محرم على عمدة السنبلاوين الشيخ العدل أحمد عمدة جزيرة القباب .

عن الجيزة — عامر افندى الزمر عمدة ناهية — ابراهيم أحمد المنشلوى عمدة دهشور — عبد الباقى عزوز عمدة الرقة

عن بنى سويف والفيوم : حزين الجاحد عمدة العجميين — على سيد أحمد عمدة الزربى — زايد هندى عمدة جزيرة ببا — محمد حسن كساب عمدة النويرة — جرجس برسوم عمدة بنى سلامة .

عن المنيا وبنى مزار : ابراهيم افندى الشريعى عمدة سمالوط — اسماعيل أحمد على عمدة الزاوية — أحمد حبيب

عمدة الفنت — ميخائيل اثناسيوس عمدة أشروبة · حسن افندى شمراوى عمدة المطاهرة ·

عن اسيوط : سليمان افندى عبد العال (ساحل سليم) عثمان غزالى عمدة بنى رزاح — يوسف محمد عمر عمدة الشيخ تمى — وميح شحاتة عمدة القوصية — عمر حمد عمدة الشغبة — عبد العال موسى عمدة دروة ·

عن قنا واسوان : عمر افندى أبو يحيى عمدة ابو مناع — من أولاد عليوة — عبد الرحمن حمد الله عمدة الجبيرات — عثمان أبو ليلة من الكتكاتة — عطية مهران من ناحية نزة — الشهيد سلطان عمدة بندار ·

عن قنا داسوان : عمر افندى ابو يحيى عمدة ابو مناع — محمد سحلى عمدة فرشوط — على ابراهيم عمدة حجازة — احمد افندى عبد الصادق من اسوان — احمد على اسماعيل عمدة السليمية ·

عن دمياط : على بك خشلجى ·

ومن اليسير أن يدرك القارئ أن كل النواب تقريبا من العمد حتى انه لو سمى المجلس (مجلس العمد) لما كان فى ذلك مبالغة ، وان تمثيل التجار والمثقفين من خريجى البعثات والعمال والصناع قد انعدم تقريبا · وذلك ما يعطينا فكرة عن تقدم طبقة ملاك الاراضى وابتداء ظهورهم وتقلص نفوذ العلماء ·· والصناع ·· وكانوا ابرز الطبقات فى عهد الحملة الفرنسية ··

وفى يوم الاحد ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ — ٢٧ من رجب سنة ١٢٨٣ افتتح المجلس لاول مرة (١) ··

---

(١) نشرت بمجلة الدعوة فى العدد الصادر يوم ٢٦ اغسطس سنة ٥٣ ص ١٢ ·

- ٤ -

مجلس شورى النواب يؤدى وظيفته

وفى اليوم المحدد وهو كما قلنا سابقا ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ « الموافق ١٧ رجب سنة ١٢٨٣ » اجتمع المجلس لاول مرة برئاسة اسماعيل باشا راغب بمقره بالقلعة وحضر الخديوى بصحبة شريف باشا وحافظ باشا وزير المالية واسماعيل صديق « المفتش » وعبد الله عزت ورياض باشا « المهر دار » واحمد خيرى بك ...

وتليت خطبة العرش التالية :

« من المعلوم أن جدى المرحوم محمد على تولى مصر ووجدها خالية من اثار العمارة ووجد اهلها مسلوبى الامن والراحة فصرف الهمم العالية لتامين الاهالى وتموين البلاد بايجاد الاسباب والوسائل اللازمة الى ذلك . حتى وفقه الله تعالى لما اراده من تأسيس عمارية الاقطار المصرية . وكان والدى عونا له ونصيرا فى حياته . فلما آلت اليه الحكومة المصرية اقتفى اثر ابيه فى اتمام تلك المساعى الجليلة بكمال الجد والاجتهاد ، فلو ساعده عمره لكملها على احسن نظام ثم انقلبت احوال مصر بعدهما ، الى أن قدر الله تعالى تسليم حكومتها الى يدى ، ومن حين تسلمته لهذا الآن رأيتم دوام سعيى واجتهادى فى اكمال ما شرعناه من المقاصد الخيرية بتكثير اسباب العمارية والمدنية اعاننى الله على ذلك . وكثيرا ما كان يخطر ببالى ايجاد مجلس شورى النواب ، لأنه من القضايا المسلمة التى لا ينكر نفعها ومزاياها ان يكون الامر شورى بين الراعى والرعية كما هو مرعى فى اكثر الجهات ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم فى الامر » وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فلذا انتنسبت

افتتاح ذلك المجلس بمصر تتذاكر فيه المنافع الداخلية وتبدى به الآراء السديدة . وتكون أعضاؤه مكونة من منتخبى الاهالى ينعقد بمصر فى كل سنة مدة شهرين . وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم المبارك على يدنا ، الذى انتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الاهالى وانى اشكر الله على ما وفقنى لهذا الامر المبرور ، وواثق من فطانتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية وفقنا الله تعالى لما فيه منفعة الجمهور ، وعلى الله الاعتماد فى كل الامور .. » .

هذه هى خطبة العرش الاولى .. واذا جردناها من المقدمة الزائفة عن حالة البلاد حتى تولاها محمد على وابراهيم « حتى انقلبت الاحوال » بعدهما — وهو التعبير الوجيز الذى جاد به اسماعيل على حكم عباس وسعيد ، ومن خاتمته البلاغية السقيمة وجدنا أن الشىء الوحيد الجدير بالملاحظة والتعليق فى هذه الخطبة هو بناء حكم الشورى على تقرير القرآن له .

الرد على خطبة العرش

انتخب المجلس لجنة تتولى الرد على خطبة العرش وتألفت هذه اللجنة من عشر اعضاء هم اتربى بك ابو العز وهلال بك ومحمد افندى عفيفى ومحمد افندى شمير والشيخ محمد الصيرفى وسليمان افندى عبد العال وابراهيم الشريعى وعمر افندى أبو يحيى وحسن افندى شعراوى والشيخ على سيد أحمد .

ووضع هؤلاء ردا طويلا حشى بعبارات الخضوع والتمجيد والتقديس لشخص الخديوى . ويبدا بالآتى : « بعدما تشرفنا بالاصغاء للمقالة الجليلة ، الجامعة جوامع الكلم الجميلة .. نبادر الى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح ، وكمال الارتياح .. ونقول ان مما تطفناه من زواهر الاخبار التاريخية وعرفناه

من سوالف آثار الديار المصرية .. انها كانت فى الاعصار الخالية رائعة فى حلل المفاخر الحالية » ثم يستطرد الرد بهذا الاسلوب المطوط بجمله المزدوجة — نزولا على أحكام السجع التقليدى . فيشرح كيف تناولتها ايدى المحن وانطمست آثارها وتقهقرت حتى تقدم غيرها عليها الى ان اراد الله نهوضها « فشرفها بجد المعزيز جنتمكان محمد على باشا » فأنشأ الدواوين .. وبنى الآثار الرائعة .. والصنائع الفائقة الخ ... ثم تولى على الاقطار المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة « الى أن نفحتنا النفحات الالهية . واسعفتنا العناية الربانية بالحضرة الاسماعيلية وأعطى القوس باريها لطفا من الله بهذه الديار ومن فيها . وتولاها العزيز بن العزيز ذلك الجناب الافخم والداورى الاكرم الخ .. الخ ... » وكيف جدد . واصلح واقام واسس حتى ينتهى الرد الى انشاء المجلس فيقول « ومن كمال همته السنية وتمام رأفته ورحمته بالرعية وشغفه بدوام راحتهم وتمام رفاهيتهم اقتضت ارادته العلية انشاء مجلس شورى أهلية وطنية ، لما يعلمه من أن جمع الآراء فى أمور العالمين ، والمداولة فى مصالح الرعية ، مع عقلاء الوطنيين من مقتضيات حسن النظام وموجبات كمال الالتئام وتمام راحة الانام وفوض انتخاب ذلك المجلس لعموم الاهلى حتى يكون ما يحكمون فيه من الامور بواقع مألوفهم وعرض جميع ذلك الى حضرة الوالى ، تبرؤا من غوائل المغدورية . وتوفيرا لدواعى العدالة العمومية ، فكنا نحن المنتخبين من سائر الجهات ، المصادفين بموسم مولد الحضرة الخديوية أسر الاوقات . واذ كان انشاء هذا المجلس الانيق من اجل المساعى الحميدة . واتم نعمة اسداها ولى النعم عبيده فمن الواجب الاهم التشكر لتلك الحضرة العلية ، والتباهى بتلك المنقبة

البهية ، ورفع اكفنا اناء الليل وأطراف النهار بالدعوات فى اجل الاوقات وسائر الحالات أن يخلد عز قطرنا هذا بدوام سعود افندينا الافخم وولى عهده حضرة محمد توفيق باشا الاعز الاكرم وكذا بقية الانجال الفخام ولا يحرم جميعنا من حسن انظارهم ونفائس محاسن أفكارهم بجاه خاتم الرسل الكرام عليه افضل الصلاة واتم السلام » (٥)

وثيقة الاعتماد

. واصدر الخديوى وثيقة لكل عضو يعتمد فيها نيابتهم جاء فيها ... « قدوة الوجوه المعتمدين والاعيان المنتخبين .. فلان زيد اقباله ودام كماله . . قد علم آل الوطن العزيز ، وفهم أهل الفطن والتمييز دوام شغف فؤادنا واشتغال افكارنا بما فيه معمورية بلادنا هذه ، وسعة منفعة ديارنا ، وما تقدم أهلها فى مدارج التمدن ، ويصعد بهم فى معارج التمكن وقد علمت أن ترتيب مجلس الشورى الوطنية مما يعود على ديارنا هذه بمزيد المزية ، كما جرت فى سائر المدن المتمدنة ، وشوهد بين جميع الملل المتمكنة، لان تلاحق الافكار وتصادق الآراء والانظار .. يستنتج ثمرات الالباب من اغصانها ويستخرج محسنات الصواب من افنانها . وقد رأيت فى أهل وطننا المبارك بحمد الله تعالى وتبارك من مزيد الاهلية والاستعداد ما يكون عونا على حصول هذا المراد . فلذا رسمت بترتيب المجلس المذكور وانشائه واصدرت لائحة مخصوصة فى كيفية انتخاب اعضائه ، بحيث يكونون من وجوه اهل وطننا ليتولوا عن سائر اهالى مدائننا وبلداننا ، وقد كمل أمر الانتخاب الآن ممن يصلح لهذا الشأن وانت ممن انتخبوا لهذا الشأن وصدق عليهم فى قرار القومسيون المخصوص وعرف ذلك بواسطة سعادة رئيس المجلس الينا ، فقوبل بقبوله واستحسانه لدينا ، فأصدرت

هذا اليك اعلاما بانك ممن حاز شرف الامتياز بالعضوية فى ذلك المجلس مجلس شورى النواب الوطنية ، وذلك لمدة ثلاث سنين شمسية ، حسبما تقرر فى اللائحة الانتخابية .

وكلكم اصحاب روية واهلية وارباب فطنة جلية . وكمال معرفة بالمصالح الداخلية والمنافع المحلية فأملى فى سمو أفكاركم وعلو انظاركم أن يكون فى اجتماعكم هذا ما يزيد أوطاننا به فلاحا وتمدينا وتجارى غيرها من الممالك المعمورة والمدائن المشهورة اصلاحا وتحسينا فتعاونوا فى النظر الصائب وتبينوا الفكر الثاقب وخذوا فيما يتعلق بهذا المجلس من المصالح الداخلية. والمواد التى ترى الحكومة انها من خصائص هذه الشورى الوطنية وادوا وظائف هذه الجمعية على وفق حدودها وابدوا من شرائف الآراء البهية خير موجودها ، وتبصروا لما فيه اعتلاء اقدارنا بأقطارنا ، واجتلاء أوطاننا بأوطارنا . ومزيد الرفاهية لاهاليها وساكنيها على وفق المطلوب وانتظام حال الزراعة والتجارة والصناعة فيها على أحسن أسلوب . نسأل الله دوام التوفيق وبلوغ الآمال وحسن الحال والمال فهو مولى الخير ومولى الكمال « فى رجب سنة ١٢٨٣ »

المجلس يباشر وظيفته

بدأ المجلس عمله بانتخاب الاقلام الخمسة التى تنص عليها لائحة النظام الاساسى وهى كاللجان حاليا . وتأسس كل قلم من خمسة عشر عضوا وهذه اللجان هى لجنة المدائن (أى العواصم) ولجنة روضة البحرين أى الغربية والمنوفية ولجنة الشرقية ولجنة المنيا ولجنة اسيوط ، ومهمة هذه اللجان النظر فى تحقيق صحة نيابة الاعضاء . وقد أدت اللجان مهمتها وانتهت الى صحة نيابة الاعضاء جميعا ورفعت ذلك الى رئيس المجلس فكتب هذا الى

المهردار (حامل الاختام) ليعرضها على « الاعتاب الخديوية »
لمنح كل عضو وثيقة الاعتماد « البيرولدى » التى أوردنا نصها .

وكان المجلس يتداول فيما تعرضه الحكومة من الامور :
اما ما يقترحه الاعضـــاء فكان يعرض أولا على المجلس بمعرفة
الرئيس ليبحث هل ينظر فيه أم لا .. فاذا قرر النظر ارســلت
صورته الى المجلس المخصوص .. ثم يتداول فيه الاعضــاء .
وقد يحيلونه على لجنة مختصـــة يناقش قرارها ، فاذا تبلورت
النتيجة الاخيرة ارسلت الى الاعتاب السنية لعرضه على الخديوى
للنظر فيه . وكثيرا ما كان الامر يتطلب استدعاء أحد الوزراء أو
الموظفين ومن هؤلاء شريف باشا وزير الداخلية ومحمد مظهر باشا
وكيل الاشغال ومحمد حافظ باشا وزير المالية ومفتشيـــو الرى
والاقاليم وكان كاتب المجلس يحرر محاضر الجلسات ويوقع عليها
رئيس المجلس . أما القرارات فكان يوقعهـــا مع الرئيس جميـــع
الاعضاء .

وقد نظر المجلس فى دورة انعقاده الاول مسائل عديدة منها
مسألة السخرة وتقسيط الاموال الاميرية . وتعميم المدارس والغاء
نظام العهد ومنع مجازاة العمد بالضرب بخلاف الاقتراحات المحلية
من بناء قناطر أو فتح ترع الخ .

وكانت الحكومة توفد مندوبها ليفيد المجلس برايها وكان فى
كثير من الحالات بالموافقة ، ولكنه فى حالات اخرى مخالفة أو عدم
استجابة كما كان الامر فى اقتراح تقسيط الامرال الاميرية اذ اعتذر
وزير المالية محمد حافظ باشا بأنه وان كان اقتراح المجلس فى محله
الا أن الحكومة مرتبطة بدفع فوائد الديون واقساطها . ولذلك
لا تستطيع الاخذ بوجهة نظر المجلس . وفى حالات الموافقة لم
يكن هناك اجراء يتبع الموافقة بالتنفيذ فعلا ،

---

(١) نشرت بمجلة الدعوة العدد الصادر فى ٢ سبتمبر سنة ٥٣ .

واصل مجلس شورى القوانين الانعقـاد دورات انعقـاده النظامية حتى سنة ١٨٧٣ . ولكنه لم يدع سنتى ٧٤ و ٧٥ ، ويبدو ان الارتباك الذى تملك الحكومة نتيجة لازمة الديون ، وخوفها من ان يقف المجلس دون أن تقترض من جديد أو لا يوافق على بعض تصرفها كبيعها أسهم قناة السويس لبريطانيا بثمن بخس — حال دون ان تنشط لدعوته . وهو أمر قد يفهم من جانب الحكومة ، ولكن مما لا يساغ أن يقف المجلس موقفا سلبيا ازاء ارجاء الحكومة دعوته .

على كل حال تغير الامر من بداية ١٨٧٩ ، فتقمصت المجلس روح جديدة كان من ابرز اسبابها وجود جمال الدين الافغانى ، ويكفى لتصوير اثره ان نقول ان عمدة المؤرخين المصريين لهـذه الفترة الاستاذ عبد الرحمن الرافعى — وضع ترجمة جمال الدين الافغانى فى سياق عرض عمل المجلس هذه الفترة ليربط بين وجوده وبين عمل المجلس ، وخصص لترجمته ثلاثين صفحة كاملة من القطع الكبير ، وهو ما لم يفعله مع اى شخصية اخرى . وبدت هذه الروح جلية فى الرد على « خطاب العرش » الذى القاه اسماعيل باشـا فى افتتـاح الدورة يوم ٢ يناير سـنة ١٨٧٩ (٩ المحرم ١٢٩٦) اذ جاء فى رد المجلس .

« نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها ، التى هى فى نفس الامر مصلحة الحكومة ، نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذى هو اساس المدنيـة

النظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية التى هى منبع التقدم والترقى ، وهو الباعث الحقيقى على بث المساواة فى الحقوق ، التى هى جوهر العدل وروح الانصاف .

« وتكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزارة جعلته مسؤولا كافلا أمام الامة تأييـدا لمجلس النواب ، وتتميما له ، ولذلك حينما تعلقت ارادتها السامية بأن ينظر الوزراء فى امور المالية والاشـغال الداخلية ، دعت نواب الامة ليتداولوا معهم فى ذلك ، حفظا لحقوق الرعية ، ومصلحة الحكومة .

« وانا نبث ايضـا عن الامة عموما ، وعنا خصوصا ، مزيد الثناء على هذه الحضرة المعظمة ، لما تعطفت به من تشريف ركابها الرفيع لافتتاح هذا المجلس احتفالا به فى يوم ستجنى الامة من غرسه ثمار الرفاهية والراحة .»

« ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا وكمال ابتهاجنا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتكم الذى انبا عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزى الى اصلاح الامة المصرية، والرغبة الخالصة فى صعودها على معارج التقدم وترقيهـا الى ذروة السعادة ونيلها الحرية فى تصرفاتها قولا وفعلا حيث ابانت عظمتكم أن الغرض من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم فى المسائل المتعلقة بالمالية والاشغال الداخلية .

« فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، واحيا آمال هذه الامة التى لاتزال راجية أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ وانبأت به الآثار بمسـاعى الحضرة الخـديوية وهممها العليـة .

« وانا لا نألو جهدا فى دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياما بأداء واجباتنا التى هى فى الحقيقة مقاصد ولى النعم ».

« فليحى الخديوى المعظم ، وانجاله الكرام ، ولتحى الحرية تحت ظل رعايته وحمايته ، آمين »

ومقارنة الاسلوب ، والروح فى هذا الرد ، برد المجلس منذ عشرة أعوام تقريبا تظهر التغيير فى نفسية الاعضاء بل الروح الجديدة التى كادت تجعلهم اشخاصا آخرين .

ونظر المجلس فى خلال هذه الدورة الاعمال المالية وطلب حضور وزير المالية وهو الانجليزى المتغطرس ريفرز ويلسن : فلما لم يحضر ، واصل المجلس عمله واتخاذ قراراته ..

وفى احدى الجلسات استنكر النائبان محمود بك العطار وعبد السلام بك المويلحى اغفال المجلس فى ديكريتو صدر فى ٦ يناير ١٨٧٩ يقضى بأن يقرر مجلس الوزراء القوانين المالية ويصدق عليها الخديوى . لأن المفروض ان تعرض على مجلس النواب (كما اصبح اسمه فى هذه الايام) وقالا ان كل ما يختص بأموال وفرض ضرائب ووضع لوائح أو قوانين أنما يقصد به الاهالى لا غير . وكل ما يقصد به الاهالى لابد أولا من عرضه عليهم ورضائهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به ، وحيث انهم أنابوا عن انفسهم نوابا منهم منوطين بالمدافعة عنهم والمحاماة عن حقوقهم والنظر فى شئونهم بعين المصلحة ، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه ، وذلك لا يخفى على دولتو رئيس النظارة ، وكيف يخفى عليه ان للأمة المصرية نوابا ، وهو يعلم دعوتهم للالتئام وقد شهد يوم اجتماع المجلس ، وحضر افتتاحه وسمع تلاوة الخطاب

الخديوى وحضر يوم اجابة الاعضاء على ذلك الخطاب ووقف على مضمون كل من الخطاب وجوابه ، وعلم ما فوض اليهم امر المذاكرة فيه ، ومن ثم قد أخذنا العجب ، وذهب بنا الاسف كل مذهب ، ولا نشك فى انكم معشر النواب قد أخذكم من العجب والاسف ما أخذنا ، كيف لا ، وان مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يجهل حقوق مجلس النواب ، ومقدار احترامها ، كما لا ينكر ان موضوع الدكريتو المحكى عنه هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التى لا يصح انتهاكها ، ولذلك كانت الحضرة الخديوية من عهد تشكيل مجلس النواب لا تبرم غالب الامور المهمة التى تكون من هذا القبيل الا بعد أن تعرض على أعضائه ، ولا يقضى بها الا بعد اقرارهم وضعها الخ ... » .

وهذا تصوير سائغ سليم لسلطة مجلس النواب القائمة على نيابته عن « الاهالى » وقد نال هذا البيان ثناء الجميع ، وقالت جريدة التجارة (العدد ١٨٠ — ٣ فبراير ١٨٧٩) « ان من تصفح ذلك التقرير علم ان فى السويداء رجالا سودتهم نفوسهم فلا تسام خسفا ، ولا تضام عسفا » وجريدة التجارة هى احدى الجرائد التى كان جمال الدين الافغانى وراءها بل أن هذه الجملة تحمل روح واسلوب جمال الدين الافغانى نفسه .

وعقب هذا البيان الذى تقدم به النائبان طلب المجلس حضور رئيس الوزراء ، وكان الارمنى نوبار باشا ، فحضر « وقدم للمجلس احتراماته الفائقة » ثم ادلى ببيان حاول التهرب فية من مواجهة المسألة على أساس انها « مسألة أساسية » تحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظار ، والعرض على الاعتاب السنية .. الخ .. وان التكلم فيها يتعلق بنصلاح المملكة الخ ..

فرد عبد السلام المويلحى قائلا :« من حيث أن هذه المسألة اساسية فهذا هو الموجب لكونها من حقوق النواب .. » .

ولم يستطع نوبار ان ينجو من قبضة المجلس آلا بشق الانفس وبعد ان أدار الحديث على قضية ترتيب المحاكم الخ ..

على كل حال ، فقد سقطت وزارة نوبار باشا ، اسقطتها مظاهرة الضباط الذين تقرر الاستغناء عنهم ضغطا للنفقــات ، فتجمهروا وانزلوا نوبار باشا من عربته واوسعوه ضربا ، ولما د ريفرز ولسن وزير المالية الانجليزى لنجدته جذبوه ارضا وشدوه من لحيته ثم حبسوا الوزيرين ، ومعهم رياض باشا فى احدى حجرات الوزارة حتى جاءهم اسماعيل باشا بنفسه وتلطف معهم ووعدهم بالاستجابة لمطالبهم . فانصرفوا .

واعيد تشكيل الوزارة برئاســة توفيق باشـــا وبعضـــوية الوزيرين الاجنبيين اللذين فرضتهما الديون على مصر ! بينما واصل المجلس اجتماعاته ، دون نظر الى استقالة وزارة وتشكيل وزارة اخرى . وفى جلسة ١٩ مارس ١٨٧٩ (٢٦ ربيع الاول ١٢٩٦ تقدم « انهاء » من ٤٩ نائبا يشيرون فيه الى المقترحات المالية التى قدمها المجلس خاصة بتخفيض الضرائب والاتاوات الفادحة وان المجلس طلب حضور وزير المالية فلم يحضر ، وان الحكومة أعطته آذانا صما ...

وراى الوزيران الاوربيــان أن المجلس يهــدد سلطتهما . فاعتزما التخلص منه ، ووافقهما رياض باشا رئيس الوزراء ، خاصة وأن مدة نيابة المجلس ، وهى ثلاث سنوات كانت قد انتهت . فاستصدر من الخديوى مرسوما بفض المجلس ..

وحضر رياض باشا مسلحا بمرسوم الحل وقال للاعضاء :

ــ ابدى لكم كامل الشكر والثناء على ما ابديتموه من الهمم والمساعى الخيرية التى من اللزوم ان نكون جميعا فيها كرجل واحد ، انما حصلت بعض معذوريات أوجبت التأخير ، ولكن لابد من الحصول على اتمامها ، والمسائل التى أوضحتم عنها صار تلقيها بغاية الاعتبار ، وان شاء الله متى كانت القلوب متجهة الى حسن النية فستكون الحالة حسنة خيرية ، وفى الاجتماع الجديد لابد من النظر فيما فيه المصلحة .

وعندئذ نهض النائب الجرىء محمد افندى راضى وقال :

ــ مما طلب المجلس لاجلة النظر فى مسائل مالية ، وقد مضى ثلاثة شهور وما كانت ترد ، والملحوظات التى تحررت من الاقلام التى تراءت للمجلس أرسلت للداخلية للنظر فيها بمجلس النظار ، ولدواعى مضى تلك المدة وعدم ورود شىء ودخول وقت الصيف طلبنا اجازة مدة شهرين لرؤية أشغالنا ونعود ، والامر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس انتهت مدته ، مع أنها ما انتهت ، وحاصل الامر انه لابد من عودة المجلس بعد المدة التى قررها لاجل رؤية تلك المسائل والملحوظات .

عبد السلام بك المويلحى ــ ان المجلس طالب عدم قطع امر فى اى شىء كان الا باشتراكه ، وان بعض الاعضاء يقول انه اذا كان لا يحصل ذلك ربما يحصل من الاهالى أمور لا يصح وقوعها ، ويكون مجلس النظار تحت المسئولية .

رياض باشا ــ ما قلتموه الآن هو بخلاف لائحة المجلس والجارى لحد تاريخه ولا يمكننى أن اجاوب عن ذلك منفردا ، وانما ينظر فيه فى مجلس النظار ، والمأمول أن لا يحصل شىء من الاهالى مما يكدر الراحة .

عبد السلام بك المويلحى — المجلس لائحته تقضى أن ينظر فى المنافع الداخلية ، والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائصه ، ينظر فيها ويعطى قرارات تعرض للحضرة الخديوية .

رياض باشا — الخروج عن اللائحة والقانون الموجودين لا يمكن الا بأمر ثانى .

محمد افندى راضى — اللائحة تعطى للمجلس حقوقه .

رياض باشا — ننظر فى اللائحة والاجراءات السابقة ، واذا كان مجلس النظار او سعادة ولى النعم يبدى شيئا آخر ، فهذا يجرى ما يلزم عنه ، واما مجيئى فانه لاجل أداء الشكر والتوجه لطرف الاعتاب كما هو جارى حسب المعتاد عند انفضاض المجلس

محمد افندى راضى — شكر سعادتكم مقبول ، لكن لا يمكن صرف المجلس الا اذا نظر فى المسائل التى حرر عنهـا ، وفى الميزانية .

بدينى افندى الشريعى — الامر الصـادر يقضى بلغو المجلس فالمقصود اثبات مجلس الشورى ، ولا تحصل اجراءات ولا قوانين من مجلس النظار الا بالاشتراك مع مجلس النواب .

رياض باشا — الامر يقضى بانفضاض المجلس لانقضاء مدته .

ولم يقتنع الأعضاء ، واعتبروا المجلس منعقدا ، وفى ٢٩ مارس ١٨٧٩ قدموا للخديوى عريضة احتجوا فيها على مسلك الوزراء ، ورفضهم لاعلان « افلاس الحكومة » وطلبوا اليه العمل لانقاذ الموقف .

واصرار النواب على انعقاد المجلس ، ورفض الحل جعل احد الكتاب يشبه هذه الجلسة بجلسة نواب الامة الفرنسية التى رفضوا فيها الانفضاض ، واجتمعوا فى ملعب الكرة فاشار الى هـذه

الجلسة تحت عنوان « يوم كيوم ميرابو »(١) وعمليا فان المجلس اعتبر منعقدا ، كما سيعرف القارىء مما سيلى .

وفى ابريل اجتمع فى دار السيد على البكرى نقيب الاشراف مجموعة كبيرة من الشيوخ والعلماء والاعيان والاحرار ونواب المجلس ، ثم اجتمعوا مرة أخرى فى دار اسماعيل باشا راغب اول رئيس لمجلس شورى القوانين فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٧٩ ووضعوا لائحة اطلق عليها « اللائحة الوطنية » جاء فيها :

« صار اطلاعنا على المشروع المقدم من سعادة ناظر المالية « ريفرز ولسن » ووجدناه لا يوافق لوطننا . فلاجل سد الخلل وتدارك الامر قبل فواته . فمن بعد المذاكرة بيننا راينا وجوبا ان نقدم مشروعا حافظا لحقوق العموم داخلا وخارجا . مع احترام الشرائع المقدسة . والقوانين المؤسسة . وها هو المشروع المذكور مرفق مع هذا . ولكن هذا المشروع ما صار اغماله وتحريره الا بعد حصول علم اليقين لدينا بان ايرادات بر مصر هي كافية لسداد الديون المطلوبة من الحكومة حسبما هو موضح بالمشروع المذكور . فلاجل ذلك نحن عن انفسنا ونيابة عن ابناء وطننا صممنا جزما على بذل مجهودنا في تأدية ديون الحكومة وبذل كافة ما فى وسعنا وطاقتنا فى اجراء ذلك . وبذا صار ختم هذا اعلانا بتصديق ذلك . وباننا متحدون اتحادا تاما قولا وفعلا فى الاجراء » .

تحريرا بمصر يوم الاربعاء ١٠ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ (٢ ابريل سنة ١٨٧٩) .

« التوقيعات »

---

(١) فجر الحياة النيابية للدكتور عبد العزيز رفاعى ص ١١٩ نشر المؤسسة العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر .

وختمت اللائحة بطلب تعديل نظام مجلس شورى القوانين بحيث يتحقق مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس — وهو حجر الاساس فى الحكم النيابى — ووضع دستور « على احدث المبادىء العصرية » وهى جملة ستصاحب المطالبة بالدستور حتى دستور سنة ١٩٢٣ ، وللجملة دلالتها بالطبع ٠

وتقبل اسماعيل اللائحة الوطنية ، رغم احتجاج الوزيرين الاوربيين ، واستقالت الوزارة ، وعهد الخديوى الى شريف باشا بتشكيل أول وزارة دستورية بالمعنى الكامل وجاء فى خطابه الى شريف باشا :

« **انى بصفة كونى رئيس الحكومة ، ومصريا ، ارى من الواجب على أن اتبع راى الامة** واقوم بازاء ما يليق بها من جميع الاوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من ان ذلك السير كان على غير رضا الله والاهالى ، وكانت قبل ذلك فى غاية الهدوء والسكون ، وطالما اخبرت النظار ووكلاء الدول وتبهتهم على تلك الملحوظات فلم يتيقظوا لها ، ولم يلتفتوا اليها ، وزيادة عن ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر المالية واظهر بها أن القطر فى حالة العدم وابطل العمل بمقتضى القوانين المعتبرة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة ، وكانت سببا فى تغير قلوب الامة ، ونفورها من هيئة النظارة كل النفور ، وحقق لى ذلك المحضر الذى تقدم لى فى هذا الخصوص ، فاجابة لما عرض على بذلك ، وبالنظر لثبوته عندى ، قد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الارادة الصادرة فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ ، وان تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء اهليين ، مصريين ، يتبعون فى سيرهم الطرق المنصوص

عليها فى الارادة المذكورة ، » وان يتحفظوا على ماموريانهم كل التحفظ ، اذ **انهم مكلفون بالمسئولية لدى مجلس الأمة الذى** سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأمورية بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة نفسها (١) .

وعلق الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الثانى من كتابه » عصر اسماعيل « تحت عنوان « مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب » فكتب :

« وهذا الكتاب يعد من الوثائق الهامة فى تاريخ الحركة القومية والحياة الدستورية فى مصر ، لان الخديوى اسماعيل اعترف فى هذه الوثيقة بان من واجباته اتباع رأى الامة ، وانه لم يكن راضيا عن الوزارة المستقلة لمخالفتها ارادتها ، فهو يعلن أنه مؤيد لمطالب الامة ممثلة فى نوابها تأييدا تاما ، وانه موافق على اللائحة الوطنية التى تقدمت اليه ، وعلى هذا الاساس عهد الى شريف باشا تاليف الوزارة الجديدة على أن يكون اعضاؤها كلهم من الوطنيين ، وهذا معناه اقصاء الوزيرين الاوروبيين عن هيئة الوزارة ، ومما هو جدير بالاعجاب اشادة الخديوى بمصريته ووطنيته ، فقد استهل كتابه بهذه الصفة وختمه بالتنويه بميزة شريف باشا وهى « اخلاصه لخدمة الوطن» ورغبة اسماعيل فى أن يقترن اسمه بحضارة مصر وعمرانها ، وتلك لعمرى عواطف نبيلة تزيد فى قيمة هذه الوثيقة التاريخية.

وقد قرر الخديوى فى كتابه مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب وهى أساس النظام الدستورى الحديث ،

---

(١) نقلا عن « عصر اسماعيل » ج ٢ ص ٢٢٢ للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

فهذا المبدأ الهام الذى يعد قوام الدساتير قد تقرر اذن فى مصر سنة ١٨٧٩ بالوثيقة التى استجاب بها الخديوى اسماعيل الى الاحرار وعهد بها الى شريف باشا تاليف الوزارة على أساس هذه القاعدة ، فاذا أردنا أن نجمل تاريخ الحياة النيابية فى عهد اسماعيل ، قلنا أن مجلس شورى النواب أنشىء فى أوائل عهده (سنة ١٨٦٦) ناقص السلطة ضعيف الحول والقوة ، ثم اكتملت سلطته بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه سنة ١٨٧٩».

وصور — أى عبد الرحمن الرافعى — مشاعر الناس :

ابتهج الناس لقبول الخديوى اللائحة الوطنية ، تأليف وزارة شريف باشا ، واجتمع يوم الثلاثاء (٨ ابريل) بدار السيد البكرى جمع كبير من علماء الديار المصرية والاعيان والتجار ، وتوجهوا بعد الظهر الى سراى عابدين لتقديم واجب الشكر للخديوى ، فاستقبل أولا العلماء ومعهم بطريرك الاقباط ، وتلقاهم بالرعاية والاكرام . وحثهم على التضافر والتعاون ، ثم القى السيد البكرى خطبة قال فيها « اننا بلسان الوطن والامة نرفع الى مقام الجناب الخديوى الاسمى اجزل الشكر والثناء على عنايته بانهاض الوطن من سقطته وانقاذه من سوء ادارته ، حيث تفضل بقبول وتنفيذ طلباتنا الوطنية المقدسة المبنية على أساس العدل الذى يترتب عليه عمران البلاد ونظام أحوال العباد ، داعين لجلالته بالعز والتأييد ، متخذين هذا اليوم الذى يجمل ذكر الحضرة الخديوية غرة فى جبهة التاريخ ، عيدا للوطن والحرية » ، وتلاه الشيخ الخلفاوى ، فألقى أيضا كلمة شكر وجيزة ، وبعد ذلك قام الخديوى وقال : « ان شاء الله ننال بدعواتكم الصالحة غاية المرام ، وتتوطد الراحة والنظام » ثم

استقبل التجار وحضهم على بذل المساعى والمعاونة على توطيد الاحوال وتحقيق الآمال .

واقيمت الحفلات والافراح ابتهاجا بالعهد الجديد ، واقام السيد على البكرى فى داره مأدبة كبرى يوم الاربعاء ١٧ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ (٩ ابريل سنة ١٨٧٩) حضرها الكبراء والعظماء وفيهم بطريرك الاقباط ، وممثلو طبقات الامة ووجوه البلد واعيانه ، واشترك فيها الخديوى اسماعيل ، اذ حضرها ليلا ، وجلس بالدار خمسا وعشرين دقيقة ، يؤانس العلماء والكبراء ، ويتبسط فى الحديث معهم ، فكان لحضوره تاثير كبير فى النفوس .

واقام ابراهيم بك المويلحى ومحمود بك العطار شاه بندر التجار والسيد محمد السيوفى وغيرهم زينات امام منازلهم .

دستور مؤود ، ودستور شهيد

مكنت الوزارة على وضع الدستور الجديد الذى يقرر مسئولية الوزارة أمام المجلس — ووضعته أمام المجلس دون أن يصدر به مرسوم من الخديوى — وهو أمر قد يعد نقصا ولكنه أيضا قد يكون امتيازا من ناحية انه لا يمكن أن يعد منحة من « ولى النعم » أو حتى حائز على رضاه ، وانما هو مطلب شعبى تحقق بفضل اصرار نواب الشعب ، وتمسكهم به ، فهو ايجاب على الحاكم ، وليس هبة منه ، كما قد توحى بذلك مقدمات بعض الدساتير الاخرى ، بما فى ذلك دستور سنة ١٩٢٣ .

ومن المبادىء التى تضمنها هذا الدستور مساواة السودانيين بالمصريين فى حق الانتخاب والترشيح ، وتخصيص دوائر سودانية .

وتضمن الدستور ٤٩ مادة ، من حقها ان نثبتها هنا :

« المادة ١) مجلس النواب يتشكل من النواب الذين يصير انتخابهم على حسب صفة الانتخاب التى تتوضح باللائحة خصوصية (١) .

---

(١) نقلا عن كتاب الاستاذ عبد الرحمن الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الثانى ص ٢٣٠ .

(المادة ٢) لا يقبل نائبا من لم يكن من رعايا الحكومة المصرية ومن لم يكن له من العمر ثلاثون سنة كاملة ومن لم يكن حائزا لكافة الحقوق المدنية والسياسية ، وكذلك من لم تتوفر فيه الصفات المقررة بلائحة الانتخاب .

(المادة ٣) مدة النيابة تكون ثلاث سنين فقط ، ويجوز تكرار انتخاب النواب عند تجديد الانتخاب .

(المادة ٤) انتخاب النواب يكون فى كل ثلاث سنين مرة ، ويبتدأ فيه بأربعة شهور بالاقل قبل أول شهر كيهك (ديسمبر) الذى هو الميعاد المحدد لاجتماع النواب فيه .

(المادة ٥) انقضاء مدة مجلس النواب يكون سنويا فى اول برمهات (مارس) ويحصل انفضاضه بأمر عال .

(المادة ٦) يجوز للحضرة الخديوية بحسب مقتضيات الاحوال ان تأمر بفتح المجلس قبل وقته المعين له وأن تنقص مدة اجتماعه أو تزيدها .

(المادة ٧) رسم افتتاح المجلس يكون بحضور الذات الخديوية أو بحضور رئيس مجلس النظارة بالنيابة عنها وبحضور جميع النظار والنواب ، وتتلى فيه مقالة خديوية يتبين بها حالة القطر المصرى الداخلية فى السنة الماضية قبل الافتتاح والتدابير التى يتراءى لزوم اتخاذها فى السنة الحالية .

(المادة ٨) كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم الامة المصرية وليس فقط عن الجهة التى انتخبته .

(المادة ٩) للنواب الحرية التامة فى ابداء آرائهم وقراراتهم

ولا يجوز أن يكون أحد منهم مرتبطا فى رايه بتعليمات تصدر له أو وعد ووعيد يوجه اليه .

(المادة ١٠) المسائل التى تقدم من النظار للنواب تصير المذاكرة فيها بمجلس النواب واذا تراءى فيها ملحوظات تجرى المخابرة عنها مع مجلس النظار وانما يكون ذلك مقرونا ببيان الاوجه والاسباب .

(المادة ١١) اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد انتخاب اعضائه على شرط أن لا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة أشهر من يوم انفضاضه الى يوم اجتماعه ، واذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه راى المجلس السابق وجب تنفيذه ، ويجوز للامة أن تنتخب نفس النواب السابقين أو بعضهم (راجع المادة ٣) .

(المادة ١٢) فى حالة خلو محل أحد النواب تصير المبادرة الى انتخاب بدله ، ومدة الذى يصير انتخابه لا تستمر الا لغاية حصول الانتخاب العمومى اى أن مدة البدل لا تتجاوز المدة التى كانت باقية للنائب الاصلى .

(المادة ١٣) رئيس المجلس ووكيلاه وكتبته يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس من ابتداء انعقاده ويستمرون الى أول الاجتماع الثانى .

(المادة ١٤) مذاكرات النواب ومداولاتهم فى الجلسات العمومية تكون علنية ، ومع ذلك فانه يجوز أن تكون سرية متى طلب ذلك أحد النظار أو عشرة من النواب وأقر عليه المجلس .

(المادة ١٥) لا يجوز حبس احد النواب ولا اقامة دعوى عليه أثناء مدة انعقاد المجلس ما لم يكن بقرار صادر من المجلس المذكور ، وهذا فيما عدا الاحوال التى يضبط فيها أحد النــواب حالة كونه متلبسا بجناية جسيمة مثل القتل فعلا .

(المادة ١٦) اذا صار القبض على أحد النواب حالة كونه متلبسا بجناية ووضع فى السجن فيعطى الخبر عنه لرئيس مجلس النواب حالة سجنه ، ويصير الافراج عن ذلك النائب أو توقيف الدعــوى عليــه أثنــاء مدة انعقـــاد المجلس اذا طلب المجلس المذكور ذلك .

(المادة ١٧) للمجلس الحق أيضا فى طلب الافراج أو توقيف الدعوى اذا كان أحد النواب صار القبض عليه وسجن فى غير مدة انعقاد المجلس .

(المادة ١٨) كل من النواب قبل تأديته وظيفة النيابة يحلف يمينا بالمجلس علانية عقب افتتــاحه بأن يكون صــادقا للحضرة الخديوية وأن لا يخــون الوطن وان يحــافظ على مراعاة قوانين الحكومة وأن يؤدى الوظيفة التى أحيلت عليه بما يكون فيه خير الوطن .

(المادة ١٩) يتقرر لكل من النواب مبلغ عشرة آلاف قرش سنويا نظير مصاريف سفريته واقامته ، ويصرف له ما يخص ذلك فى كل شهر من ثلاثة الاشهر المقررة لانعقاد المجلس من تاريخ انعقاده ، بحيث اذا نقصت مدة المجلس عن ثلاثة الاشهر أو زادت فتصرف له العشرة آلاف قرش تماما ، اما اذا كان فى بحر السنة يحصل انعقاد المجلس فوق العادة فلا يكون لهم شىء الا اذا كان البعض تعين بدله وحضر ذاك البدل فى تلك الاجتماعات فتصرف

له قيمة ما يخصه مدة اقامته بواقع قسط اليوم بحيث لا تتجاوز العشرة آلاف قرش ، أما نواب جهات السودان فيصرف لهم علاوة على ذلك مصاريف السفرية لحد مصر ذهابا وايابا •

(المادة ٢٠) لا يجوز قبول متوظفى الحكومة ملكيين كانوا او جهاديين ضمن اعضاء مجلس النواب ، ما عدا نظار الدواوين ومفتشى الاقاليم ووكلاءهم والمديرين ووكلاءهم بشرط ان لا يتجاوزوا خمس عموم النواب عددا •

(المادة ٢١) لا يجوز المداولة فى أمر بطريقة صحيحة معتبرة الا اذا كان موجودا بالمجلس ثلثا أعضائه ولا يحسب ضمن الاعضاء المذكورين الغائبون بأجازة رسمية ، بل يشترط أن يكون الثلثان من الحاضرين بالمجلس ، ولا يعتمد قرار من قراراته الا اذا قررته أغلبية الحاضرين ، وعند تساوى الآراء يكون رأى الرئيس مرجحا لراى الفريق الذى يكون منضما معه •

(المادة ٢٢) لا يجوز لاحد النواب توكيل غيره فى ابداء رأيه بل يجب عليه ابداؤه بنفسه •

(المادة ٢٣) يجوز لكل مصرى حائز لحقوق الانتخاب أن يقدم للمجلس عرضا بواسطة أحد النواب • وبعد أن يحال النظر فيه على كومسيون فالمجلس يحكم بناء على التقرير الذى يقدم له من ذلك الكومسيون بقبول ذلك العرض أو بعدمه وبماهية درجة اعتباره •

(المادة ٢٤) كل طلب مختص بحقوق شخصية يتقدم للمجلس يصير رفضه متى تحقق من التحريات التى تحصل بخصوصه أن

مقدمه لم يسبق له تقديمه الى المأمورية المتعلق به ذلك الطلب أو الى الجهة التابع لها المأمور المذكور .

(المادة ٢٥) لا يجوز للمجلس أن يقبل احدا يأتى اليه بالاصالة عن نفسه أو بالوكالة عن جماعة للتكلم فى أمر ما . ولا أن يسمع قولا من أحد سوى أعضاء ونظار الدواوين ومندوبيهم

(المادة ٢٦) عند أول اجتماع لمجلس النواب يجب على مجلس النظار ان يقدم له جميع اللوائح والقوانين والمنشورات الجارى العمل بها فى الحكومة لينظر فيها وينقحها ويصدر قراره عليها ويجرى التصديق عليها من الحضرية الخديوية لتكون دستورا للعمل .

(المادة ٢٧) ان وضع القوانين واللوائح يكون ابتداء بمجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها ، بحيث لا يكون القانون معتبرا أو دستورا للعمل ما لم يتل بمجلس النواب بندا بندا ، ويعطى عنه القرار ، ويجرى التصديق عليه من الحضرة الخديوية ويجوز للنواب مراعاة المصلحة العمومية وبحسب مقتضيات الاحوال وظروف الاوقات أن يغيروا أو ينقحوا أو يعدلوا اى قانون من القوانين وأى بند من بنودها ومن جملتها هذه اللائحة الاساسية .

(المادة ٢٨) اذا رفض مجلس النواب قانونا من القوانين أو بندا من البنود مما يعرضه عليه مجلس النظار فلا يجوز تقديمه الى مجلس النواب ثانيا فى أثناء مدة انعقاده تلك السنة .

(المادة ٢٩) الحكم بصحة انتخاب النواب يختص بالمجلس دون غيره .

(المادة ٣٠) اللغة الرسمية التى يلزم استعمالها فى المجلس هى اللغة العربية ».

(المادة ٣١) يكون أخذ وابداء الآراء بالصور الآتية ، وهى اما بالنداء بالاسم او بعلامات ظاهرة او بوضع الآراء سرا فى صندوق .

(المادة ٣٢) أخذ الآراء بالنداء بالاسم لا يكون الا بالقرار من المجلس بناء على طلب يحصل من احد النواب ويشترك معه فيه عشرة منهم ، وأخذ الآراء بوضعها سرا فى صندوق لا يكون الا فيما يتعلق بتعيين اشخاص مثل تعيين الرئيس او الوكلاء والكتاب واعضاء الكومسيونات وما شابه ذلك .

(المادة ٣٣) لائحة ادارة مجلس النواب الداخليه تعمل بمعرفته

(المادة ٣٤) أعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائبا بما فيهم نواب السودان حسب البيانات التى تتوضح بلائحة الانتخاب .

(المادة ٣٥) مركز مجلس النواب يكون بمحروسة مصر التى هى عاصمة القطر .

(المادة ٣٦) النظار مسئولون أمام مجلس النواب عن كافة الاحوال والاعمال المختصة باداراتهم . وبناء على ذلك يجب على مجلس النظار المبادرة الى وضع قانون لمحاكمة النظار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب .

(المادة ٣٧) لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضى من الناظر المختص به ومطابقا لقانون معتبر (راجع المادة ٢٦ و ٢٧) .

(المادة ٣٨) لا تجتمع وظيفة النظارة والنيابة فى شخص واحد (راجع المادة ٢٠) .

(المادة ٣٩) يجوز لكل ناظر أن يحضر فى جلسات مجلس النواب أو أن يرسل له أحد كبار موظفى دائرته بالنيابة عنه بشرط أن لا يكون ذلك الموظف من ضمن النواب .

(المادة ٤٠) يجوز للنظار ومندوبيهم أن يتكلموا فى المجلس بشأن كافة الامور التى يطلبون التكلم فيها .

(المادة ٤١) اذ طرأت ضرورة مهمة جدا تستلزم المبادرة الى أخذ الاحتياطات اللازمة لوقاية الحكومة من خطر ربما يأتى لها أو للمحافظة على الامن العمومى وكان مجلس النواب غير منعقد فيجوز لمجلس النظار أن يقرر باجراء ما يلزم اجراؤه تحت مسئوليته وبالتصديق على ذلك بالقرار من الحضرة الخديوية يجرى العمل على مقتضاه بشرط أن لا يكون مخالفا للقوانين المعتبرة هذا ولدى انعقاد مجلس النواب يصير تقديمه اليه .

(المادة ٤٢) اذا تراءى للنواب التكلم فى بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من النظار فتجرى المداولة فيها ويرسل اخطار بذلك لمجلس النظار . وبعد ثمانية أيام من تاريخ ارسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس النظار أوجه تمنع من المذاكرة فيها ويقر النواب على قبول تلك الاوجه فلهم أن يتموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها .

(المادة ٤٣) النظار ملزمون بالمجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب ، اما بأن يتوجهوا للمجلس بأنفسهم او بأن ينتدبوا أحد كبار متوظفى دوائرهم للمجاوبة بالنيابة عنهم بشرط أن لا يكون ذلك المتوظف من ضمن النواب .

(المادة ٤٤) يجوز للنظار أن يؤخروا مجاوبتهم عما يسألون فيه من مجلس النواب عند الضرورات المهمة مع بيان اسباب التأخير اكثر ما يكون قبل انتهاء مدة اجتماع المجلس بعشرة أيام ويلزمهم أن يقدموا الجواب فى أول الاجتماع الثانى للنواب ومع ذلك فمسئولية التأخير عليهم .

(المادة ٤٥) من حقوق النواب أن يلاحظوا المصاريف العمومية بالدقة التامة ، وأن يقرروا مقدارها ، ويجب عليهم ان يعينوا كمية الواردات (الايرادات) وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها وأوقات تحصيلها ، فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها ولا تحصيلها ولا تكليف الاهالى بشىء منها الا بعد اقرار النواب عليها ، كما لا يجوز صرف شىء من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه النواب .

(المادة ٤٦) للنواب أن يطلبوا عقب افتتاح المجلس الميزانية العمومية المستوفية الحاوية للواردات (الايرادات) والمصروفات اينظروا فيها ، ومتى قرروا عليها بعد البحث التام لا يعمل بها الا فى تلك السنة ، ويلزم فى السنة الثانية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على النواب كما تقدم ، وهكذا سنويا .

(المادة ٤٧) كل قرار يصدر من مجلس النواب يرسل لمجلس النظار لاجراء التصديق عليه من الحضرة الخديوية .

(المادة ٤٨) اذا أبهمت عبارة بند من بنود هذه اللائحة واقتضى الحال للوقوف على حقيقة معناه فيطلب تفسيره من مجلس النواب

(المادة ٤٩) لكل نائب من النواب حق اذا راى قصورا من اى مأمور أو فى اى ادارة من ادارات الحكومة أن يكتب بذلك للناظر المختصة به الادارة وهذا فقط فى المواد العمومية .

****

لم يكد الشعب يفرح بدستور سنة ١٨٧٩ وتبدأ اللجنة الدستورية فى مراجعة نصوصه حتى أفلحت دسائس انجلترا وفرنسا لدى الباب العالى فأصدر هذا أمرا بخلع اسماعيل قبل ان يصدر المرسوم الخديوى باعتماد الدستور وتولى الحكم توفيق واجتمع مجلس النواب عقب ذلك فى ٦ يولية سنة ١٨٧٩ فتليت افادة من وزارة الداخلية ترخص للاعضاء فى التوجه لبلادهم « وبعد تاريخه ينظر فيما يلزم » ومع أن هذه الافادة انما جاءت ردا على استفسار تقدم به عدد من النواب الذين ارادوا زيارة دوائرهم ، فقد كان من الافضل لو آثر النواب الانتظار ، ولم يبق بينهم وبين نيل غرة كفاحهم الا خطوات قصيرة ولكن يمكن الاعتذار لهم على كل حال بأن خلع اسماعيل لم يكن اجراء هينا . وانه بلبل الخواطر بحيث كان التريث هو افضل السياسات (١٠٧) وسنرى على كل حال أن الجهود القديمة لم تنقطع ... وانما كان على الاحرار أن يبدأوا من جديد مع توفيق كما فعلوا مع اسماعيل .

ودستور شهيد ...

لئن كانت الاحداث قد جعلت من دستور ١٨٩٧ دستوراً موءودا ، فان الاحداث التى تلت ذلك جعلت من دستور سنة ١٨٨٢ دستورا شهيدا ، سقط قتيلا فى التل الكبير .. مع الهزيمة العسكرية

فيا حسرتا على البلاد ! كلما تكافح وتحقق نجاحا تأتى الاحداث فتهدم ما بنته ، وتسلب ما حصلته ..

الخديوى المشئوم

كان الخديوى توفيق ظلا شاحبا بالنسبة لاسماعيل فلم يكن له جراته لا فى الخـير .. ولا فى الشر . ولم يتمرس بشـئون السياسة تمرسا حقيقيا أو يلم بأقطارها . ولكنه كان رجلا ضعيف الشخصية لينا ينقاد الى حاشيته . ومن أجل هذا أمل الاحرار فى يوم ما أن يكتسبوه لصفهم . فاتصلوا به واثروا عليه حتى كان يقول للسيد جمال الدين الافغانى « أنت أملى فى مصر أيها السيد» .

ولكن ضعفه وانقياده كانت فضيلة ما بقى بعيدا عن العرش محاطا بالاحرار اما وقد اسـتوى على العرش واحيط بالبطـانة الرسمية وعملاء الاستعمار . فانها انقلبت رذيلة . وكانت سببا . ليس فى حرمان مصر من دسـتورها ، بل وحـرمانها ايضـا من استقلالها .. اذ من الطبيعى أن يكسب دعاة الاستبداد والحكم المطلق معركة التأثير عليه ، الامر الذى تم فعلا من أول يوم جلس فيه على الاريكة ، فرغما عن انه ابقى شريف باشا فى الوزارة عندما قدم استقالته التقليدية لمناسبة عزل الخديوى اسماعيل وتوليته ، ورغما عن انه كتب اليه خطـابا رقيقـا يقول فيه « ولعلمى أن الحكومة الخديوية يجب أن تكون شورية ونظارها مسئولون فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا تتحول عنه ! فعلينا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانيننا لكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الامور المتعلقة بها » فان هذا الكلام يعد الى حد ما انتكاسا وانتقاصا مما سلم به لمجلس النواب بمقتضى دستور سنة ١٨٧٩ ولو كان توفيق مخلصا لاعلن تصديقه على دستور سنة ١٨٧٩ .. أو على اقل تقدير ذكر ذلك فى كتابه بدلا من تلك الجمل العامة المبهمة التى ليس فيها تحديد

او الزام . وقد ظهر ان الخديوى توفيق انما كتب خطابه الرقيق قبل ان يصل اليه الفرمان السلطانى الذى يعتمد توليته بصفة رسمية . وما كاد هذا الفرمان يصل . ويستوثق توفيق من أن الامر قد طاب له ، حتى اسفر عن رغباته الاستبدادية صراحة وسار فيها شوطا منكرا . ففى غروب اليوم الذى غادر فيه مندوب السلطان القاهرة قاصدا الاستانة استدعى الخديوى شريف باشا واجتمع به . وبعد انتهاء المقابلة قدمت الوزارة استقالتها . وألف الخديوى وزارة يرأسها هو .. واختار أعضاءها من حاشيته وبطانته ممن كانت كل فضيلتهم أنهم اتراك رجعيون يحسنون فنون الملق والزلفى .. ويؤيدون سلطة الحاكم المطلق وقد كانت التصرفات الخرقاء لاحدهم — عثمان رفقى ناظر الحربية — هى السبب المباشر فى الثورة العرابية .. ثم ثنى بالغاء مجلس النظارة كلية ! وارسل الى كل ناظر يأمره اذا وجد عنده اشغال — أن يستصحب معه أوراقها ومعلوماتها عند حضوره الى المجلس لاجل رؤيتها وحصول المداولة عنها — حسب اللازم — ثم نفى السيد جمال الدين الافغانى بطريقة بشعة ! واخذ يصادر الصحف الحرة.

وعندما اعاد هذا المستبد الضعيف مجلس النظار عندما اتضح خرق الغائه له وعين رياض رئيسا للوزارة وكتب اليه فى خطاب تعيينه — انى لما اخذت اخيرا زمام رياسة مجلس النظارة بيدى لم يخطر بفكرى اعادة الحكومة الشخصية — كان بالطبع ينافق ويغالط ، بل ويرد على نفسه ! بدليل انه احتفظ حتى هذه المرة بالحق فى حضور جلساته .. وتولى راسته وما خطب رياض باشد اخلاصا من خطاب شريف . وقد اقاله بعده بقليل .

الجيش فى الميـــدان

لقد قيل أن الثورة العرابية قد نشـأت لعوامل عســكرية بحتة . وهو صحيح من جهة النظر السطحية والجزئيـة . فما العوامل العسكرية الا جزء من العوامل العامة .. وما كان عثمان رفقى ليستطيع ان يصدر قراره فى سنة ١٨٨٠ الذى يحول بين الضباط المصريين .. والترقى لو لم يلمس الموافقة على الاتجـاه العام نحو اضطهادة هذه الفئة . الذين هم ابناء الشعب حقا . وما كان الضـباط الثلاثة – عرابى – حلمى – فهمى ليستطيعوا رفض هذا القانون وما كان جنـودهم ليستطيعوا انقـاذهم من المحاكمة العسكرية .. ثم ما كانوا يستطيعون تقديم عريضتهم التى يطلبون فيها اقالة عثمان رفقى لولا أن الحالة العامة كانت تؤيدهم، وان الاختلال فيها وصـل الى الدرجة التى يجعـل تحطيم النظم العسكرية .. أمرا ممكنا ، بل لازما فصحيح أن البوادر الاولى للحركة العرابية كانت عسكرية .. ولكن هذا لا يمنع من ارتباطها ارتباطا وثيقا بالحالة العامة والجو السياسى .. كما لا يخفى على الباحث الدقيق ..

جيش وشـعب

ولئن كانت حركة قصر النيـل بما فيهـا من محاكمة قواد الالايات الثـلاثة عرابى وحلمى وفهمى . ثم انقـاذهم بمعـرفة جنودهم ثم تقديم طلب اقالة وزير الحربية – عملا عسكريا بحتا فان هذا ليس شأن مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ .. فقد سبقتها مقـدمات وطنيـة .. واعدت اعدادا خاصـا بعد التفاوض مع زعماء الشعب .. كما اشترك فيها كل فرق الجيش الموجودة بالقاهرة .. وقد قال عرابى باشا فى مذكراته واصفا جهوده واتصـالاته قبيل يوم ٩ « ثم أخذت فى نشر افكارى بين علماء الامة وأعيانها وعمد البـلاد ومشـايخ العربان طالبا منهم

يساعدنى فى حفظ الامن والراحة العمومية حتى نتفرغ للنظر فى مصالح البلاد ونتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال وهاوية التلاشى التى سقطت فيها او كادت بتفريط الحكومة فى حقوق الامة وبيعها كثيرا من الاراضى للاجانب مع تعيين كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالمرتبات الفادحة » وسعيها فى رفع الاحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية وغير ذلك مما كان ينذر بأوخم العواقب ثم أبنت لهم ان سكوتنا عن حفظ حقوقنا عجز وجبن فاضح ومشاركة فى التفريط فى وطننا العزيز ، وافضيت اليهم بأننا قد اعتمدنا على البارى سبحانه وتعالى فيما اعتزمنا من منع كل نفاق ما من شأنه الاجحاف بحقوقهم .. وسبيل ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيرا .. وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه الوصول بنا الى الحرية المنشودة . وختمت المنشور بطلب مساعدة أبنا البلاد وتأييدهم وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع القطر .. وسلمتنا عرائض النيابة عنها ، وفوضت الينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد معلنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من اعمال الاصلاح وما ينتج عنها من النتائج .

دور سلطان

ومن الثابت أن سلطان باشا قام بتأليب الاعيان وروى محمد عبده فى ذلك « واخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلى والبحرى فى رايه ويحثهم على الاجتماع لتاليف وفد يطلب الى رياض باشا ويلح عليه فى أن يستصدر من الجناب الخديوى أمرا باستدعاء مجلس النواب وتخويله حق النظر فى وضع قانون يضمن له البسطة فى حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات فى أوروبا ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليه

حكومتها فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة فانقلب الى عرابى وحلفه على ان يجمع له أعيان القطر من الوجهين القبلى والبحرى وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا » .

وقد تم ذلك اذ تشكل وفد من الاعيان برياسة سلطان باشا وسليمان اباظة وحسن الشيمى الخ .. وقابلوا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨١ شريف باشا بعد أن نجح عرابى فى عزل رياض وقدموا له عريضتين موقعا على كل منهما من ١٥٠٠ من عمد البلاد وكبار الاهلين : الاولى بمثابة ضمانه لتعهدات ضباط الجيش .

ونصها : « نحن الواضعين اسماءنا ادناه علماء ومشايخ واعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى والقبلى ولاعتقادنا التام بحسن صفات وخبرة دولة شريف باشا قد التمسنا منه أن يستلم ادارة اشغال رياسة مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمعرفة دولته بالحكومة المصرية والعرض عنهم للحضرة الخديوية واظهاراً لصداقتنا التامة ولخلوص نية الجيش نحن ضامنون صدق وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لاوامر دولتلو شريف باشا » .

ونص العريضة الثانية

« لما كان لا ينتظم نظام العالم . ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل وبالحرية حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله حرا فى افكاره واعماله مما فيه سعادته وحسن حاله وهذا لا يتأتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تتطرق اليها طوارق الفساد . اتخذت

الممالك المتمدنة العادلة مجالس معينة من نبهاء اممها ، ينوبون عنها فى حفظ حقوقها تجاه هيئة حكوماتها ويكونون الواسطة الحقيقية فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة وعلى هذه القواعد . ولاجل هذه المقاصد كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق . وبما أن مقاصد خديوينا المعظم جميعها خيرية ونياته سليمة فطلبا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا راجين من المراحم الدورية صدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لامتنا المصرية يكون له ما لمجالس الامم الاوروبية المتمدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة . وبذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادلها نعمة وتعيد حكومتها العادلة انموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم . واننا على يقين من قبول الناس هذا وفقا لارادة ولى النعم ادام الله جلاله » .. وقد قدم العريضة والوفد سلطان باشا بكلمة مناسبة ورد عليه شريف باشا بأن تشكيل مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة لما نقصده من الاصلاح .

واذا قيل أن اتجاه سلطان باشا — ذلك الثرى الذى يملك ثلاثة عشر الف فدان ومن ورائه الباشوات والعمد لا يتسق مع طلب الدستور .. ولا يمثل الايمان الشعبى بالحرية .. فان هذا لا ينطبق على شريف باشا — العقل المدبر للحركة الدستورية والذى كان — كما روى محمد عبده — من أقوى عوامل هذه النهضة التى انقلبت الى فتنة . من القائلين بأن النفوذ الاجنبى قد بلغ حدا لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للاجانب فى كل ما يطلبون كان شريف باشا يقنع جلساءه

بانه اذا ملك فيها اوقف الاجانب عند حدهم . وسار بالوطن شوطا عظيما في مجده . كان هو ورؤساء الفتنة يتراسلون ويتواعدون ولهذا طلبوه رئيسا للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه .

وهذا لا ينطبق على تلاميذ السيد جمال الدين الافغاني الذين قاموا بعمل الدعاية للدستور واسسوا الصحف وناضلوا نضال الابطال وتعرضوا للاضطهاد في عهد وزارة رياض التي عطلت مرآة الشرق خمسة اشهر وانذرت مجلتنا مصر الشرق — لمدة شهر ثم عطلتها تعطيلا نهائيا وسافر صاحبها اديب اسحق تلميذ السيد جمال الدين الى باريس ليصدر مجلة القاهرة باسم الحزب الوطني .

وقد كان اديب اسحق من ابرز الشخصيات المناضلة وعند انشاء المجلس عين سكرتيرا وروى محمد عبده ان الخديوى قال وهو يمضى قرار تعيينه الحمد لله الذى خلصنى من رق شخص كنت ابغضه .

من هذا كله يتضح أن دستور سنة ١٨٨٢ كان استمرار للنهضة الفكرية .. ونتيجة لايمان الشعب وتشبثه بأفكار الحرية ولم يكن عرابى باشا الا الممثل لارادة الشعب والمنفذ لرغبته .

وأحمد عرابى هو الفارس الثانى (١) من فرسان الدستور الثلاثة وهو بحكم وضعيته ووظيفته لم يكن له جهاد ادبى فى سبيل الدستور .

---

(١) كان من المقالات المفقودة مقال عن « الفرسان الثلاثة » للدستور ، وكان أولهم جمال الدين الافغانى ، ولم نر ان من الضرورى كتابة بديل عنه لسبق الحديث عن جمال الافغانى فى الباب الثانى .

ولكن السيف الذى جرده فى ساحة عابدين — فى ذلك اليوم التاريخى المأثور من سبتمبر — هو الذى اعاد الدستور .. بل هو الذى اعاد شريف باشا نفسه الى الحكم ..

ولقد قال بعض المؤرخين ان عرابى باشا انما ثار للتمايز العسكرى الذى كان موجودا بين الضباط الترك .. والفلاحين والاجحاف الواقع بالاخرين وهذا لا يغض من قيمة حركته لانه لا يقلل من قيمة الثورة على الظلم ان تقوم بها الطائفة المظلومة لحساب نفسها .. ولرفع الغبن عنها .. لان ذلك لن يوصل اليه عن طريق جزئى .. ولا يمكن الحصول على ضمان له ..

على انه من الواضح — من ناحية أخرى — انه لا يمكن الحصول على العدالة الجزئية .. أو الانصاف لطائفة من حاكم مستبد ما لم يكن هناك ضمان دائم ، وحاجز يقف استبداده ومن هنا كان انصاف طائفة معناه انصاف الامة .. وكانت ثورة عرابى ، وان كان سببها المباشر التمييز العنصرى ، الا أن نتيجتها المنطقية كانت مجلس نواب .. ودستور .. شأن عرابى ، وطائفته العسكرية ، شأن الاعيان والنبلاء ، الذين تحصلوا على « الماجناكارتا » من الملك جون .. ومهما كان عرابى باشا بطىء الفهم ، فانه كان يفهم انه لابد من دستور يحميه من انتقام توفيق باشا بصفته المحرض .. ومن أتباعه .. ومن اجل هذا كله .. عندما سأل الخديوى عرابى باشا عن طالبه كان الطلبان المقدمان من مجموع الطلبات الثلاثة ، هما عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، أما الطلب الثالث ، وهو العسكرى ، فكان زيادة الجيش الى العدد المعين

فى الفرمانات .. — وهو الى حد ما — طلب وطنى علم كما هو عسكرى خاص . وأهم من هذا كله .. ان عرابى لم يكن يتحدث الى الخديوى باسم الجيش فحسب . وانما باسم الجيش والامة ...

اما سيرة عرابى باشا بعد الحصول على دستور سنة ١٨٨٢ . فذلك ما يعنى المؤرخ السياسى .. أما مؤرخ الدستور فلا يسعه الا أن يعترف بأن عرابى باشا هو البطل الثانى فى معركة الدستور . ولا يسعة الا الاعجاب .. والتقدير بهذا القائد الفلاح الذى وحد بين الجيش .. والامة .. وجرد سيفه الماضى فى وجه الحاكم المستبد . وبذلك اكمل جهد جمال الدين .. واعطى الكرة لشريف باشا ليدبج الدستور بقلمه القانونى الحر .. وذهنه المتوقد .. ونفسه الابية العالية ...

وما من شك فى أن الحديث عن دستورى سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٢ يكون ناقصا ما لم نتحدث من شريف باشا .. الرجل الذى اخرجهما ... ورعا من قبلهما حركة مجلس شورى النواب وجاهد حتى استطاع أن يحقق مبدأ المسئولية الوزارية امامه .. وظل أمينا على الدستور أكثر مما كان أمينا لنفسه ... وفضل أن يستقيل عندما خالفه المجلس على أن يطلب من الخديوى توفيق حل المجلس ولا سيما وانه كان يؤمن من قرارة نفسه بصحة رأيه .. ولكن اخلاصه للمبدأ الدستورى جعله ينزل على رغبة مجلس النواب الذى كان يؤمن بخطئه ..

وكان شريف باشا سيدا كبيرا ، بل لعله ، فى الواقع ، أعظم سادات عصره ، ولعلنا لا نجد له قرينا فى ذلك الا الخديوى اسماعيل . وكان شريف فوق ذلك يتميز بمزايا حقة تبعث على الاحترام . ولا تزول بمضى الوقت او يتاثر حكم الانسان عليها متغير العصور .. لانها مميزات الذكاء والاخلاص . والإباء فضلا عن كفاءته بحيث نال احترام كل من خادثوه أو اتصلوا به من رجال السياسة الاوروبية وهو يعد حقا من رجال الدولة الممتازين الذين يضارعون رجالات اوروبا الافذاذ فى المكانة والكفاءة كما لاحظ بحق مؤلف عصر اسماعيل وكان شممه وترفعه يستحق كل تقدير .. لانه على بروزه - لم يصل قط الى حد الصلف . وكان دائما فى خدمة المبدأ فقد قبل أن يتولى راسة الوزراء فى عهد العرابيين وكان لها كارها .. « خضوعا » للرأى العام بينما رفض رفضا حاسما أن يذهب الى لجنة التحقيق الاوروبية مؤثرا الاستقالة

وعلى كثرة تداول كرسى الوزارة منذ أعلن الدستور حتى الان . فاننا لا نجد استقالة مشرفة مثل استقالة شريف باشا الرابعة . فهى استقالة حاسمة صريحة مختصرة بعيدة عن اللف والدوران لا أثر فيها للغرض الشخصى واذا قارنتها بالاستقالات الاخرى حتى ما كان مفهما مسببا أو لموقف وطنى - وهى قليلة جدا - اتضح امتياز استقالة شريف ووجود طابع الامتياز .. والرجولة والشرف الذى تميز به هذا الزعيم .

وانما اخرناه عن زميليه لاننا ننظر الى الامور من وجهة نظر الشعب . ونؤمن كل الايمان بأن رجل السياسة لا يكفى قط أن يكون ممثلا لشعبه .. بل يجب أن يكون ممتزجا بهم . مربوطا

الى جمهرته وكتلته .. ملتصقا ما امكن ذلك جاعلا الجماهير دثارا وشعارا .. راجعا اليهم متتبعا بحسه المرهف .. غرائزهم التى تهديهم فى الملمات .. وتتابع التطور .. وتتصل بطبائع الاشياء .. فالبطانة الشعبية — هى كما ترى — عصمة القائد التى تقيه الزلل .. وتجنبه الخطأ . وتهديه الى الصواب . واذا لم تتوفر لقائد لانحرف من حيث لا يحتسب وانقلب عليه ذكاؤه نفسه وقد يكون اقوى اسلحته واستطاع الاغراء أن يؤثر فيه .. وما من اغراء لا يستطيع المنطق الفردى ان يسوغه للقائد . وهذا هو سبب ما نراه من نكسة كبرائنا غير الشعبيين .

فالطبيعة البشرية اضعف من أن تصمد وحيدة — امام الاغراء . وبالنسبة للسياسى . لابد من اتصاله المباشر بالجمهور لكى يحارب شيئه فشيئا الاغراء . ويكون على صلة بالنبع الشعبى العظيم .. الذى يطهره اولا بأول . نعم يحدث أن ينافق القادة الجماهير . ويزيفوا عليها الحقائق وينطلى هذا التزييف على الجماهير . ولكن هذا لا يدوم فضلا عن ان خشية القائد للجماهير اعظم من خشية الجماهير للقائد . وقد اسقط المحامون نابليون .. وجابه الفلاحون توفيق واذا اراد قائد الجماهير ان يكذب أو ينافق او يأتى خلاف المبدأ الذى بايعه الشعب عليه . واستحق التكريم له .. اضطر الى اللف والدوران .. فيتيح لاعدائه فرصة النقد والتجريح . ويفيد ذلك المبدأ من حيث لا يشعر . وقد يدخل القائد الشعبى ميدان الكفاح ساخرا فى سريرته من القطيع الابله .. ولكنه يجد نفسه محمولا على هذا القطيع يسير به حيث يشاء وما الزعيم المحمول على الاكتاف الا صورة رمزية بديعة لقوة الجماهير .. وارادتها .. ولا يضر الشعب ان يسقط

هؤلاء الذين رفعهم . لان الشعب كالطبيعة لا يهمه الفرد وانما يهمه النوع فما دام الزعيم صالحا لتمثيله .. اقره والا اسقطه..

وبعض القادة يستطيعون بقوى خارقة أن يتجنبو المصير السيء للسيلى المنفرد .. ولكن يحدث دائما ان يقع لهم شوائب تنم على ضعف موقفهم . وعدم استطاعتهم المقاومة على طول الخط .. ولا سيما فى أواخر حياتهم عندما تضعف مثلياتهم التى تعتمد على اسس ذاتية تتضاءل بتقدم العمر وتعرض بفلسفة الزمن وتجاربه . مثلا . او ترفا او غرورا أو جمودا أو غير ذلك دون أن يتيسر له المنابع العظيمة الشعبية والروافد الدائمة التى لا تنضب ..

على أن قوة الشعب ليست فحسب هى القوامة على المبادىء والزعماء ، بل الاهم من ذلك أن أى عمل لا يصدر عن الايمان الشعبى لا يكون له اثر كبير حتى ولو كان صوابا فى حد ذاته فالقوة الشعبية هى الخالقة للاعمال العظيمة وهم القوامة عليها حتى لا تنحرف عن غايتها وغرضها .

ولم يكن شريف باشا رجلا شعبيا . فقد كان نبيلا وسيدا بالمعنى الحسن المحمود لهذه الكلمة . وكان حرا . ذكيا . أبيا . ولو رزق الحاكم الذى يشاركه بعض هذه الصفات لكان لعمله نصيب اكبر من النجاح ، ولما حدث هذا الاختلاف بينه وبين مجلس النواب .. ولكن شريف كان يعمل مع سيد ضعيف . منافق . طموح مع ذلك الى السلطة المطلقة .. ذليل امام الانجليز بقدر ما كان عزيزا على الفلاحين . لذلك كانت الجبهة الشعبية نصيرة لشريف باشا عليه . واعتمد شريف باشا عليها الى أن اختلفا.

لذلك كانت وزارة شريف باشا الرابعة التى قامت على انقاض الوعى الشعبى .. وبعد الهزيمة .. هى أقل وزاراته شأنا ولا سيما من الناحية الانشائية . وفى الواقع انه لا يذكر لها الا استقالتها البديعة الرائعة ..

ولنعد مرة أخرى الى سياق الاحداث التى أدت الى اصدار دستور ١٨٨٢ .. أولا ، واستشهاده ثانيا فى التل الكبير .. فى العام نفسه .. فقد وقف بنا الحديث عند يوم عابدين — ٩ سبتمبر ١٨٨١ عندما جرد عرابى سيفه وهو يقدم الطلب الخاص بمجلس النواب وقبول توفيق ذلك ، على مضض واستسلاما للامر الواقع وعهد الى شريف باشا للوزارة . وهى المرة الثالثة له ، وقد اطلق عبد الرحمن الرافعى على هذه الوزارة لقب : وزارة الامة لانها انما جاءت بطلب الامة . واتفق مع عرابى واخوانه على أن يعهدوا للسكينة لتمكين الوزارة من تحقيق اهدافها . وفى ٤ اكتوبر ١٨٨١ رفع الى الخديوى تقريرا باجابة مطلب الامة .. فدعا الى انتخاب مجلس شورى النواب على أن يكون بمثابة جمعية تأسيسية يعرض عليها الدستور الجديد .

وتم هذا ، وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ افتتح الخديوى المجلس ، وبدأ المجلس فورا فى مباشرة اعماله . ففى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ عرض شريف باشا مشروع القانون الاساسى للمجلس النيابى ليدرسه المجلس .

وكانت اللائحة أو القانون — كما وضعه شريف باشا يعطى لمجلس النواب حق مناقشة الميزانية ومسئولية الوزارة ، وهما المبدءان الرئيسيان فى كل حكم نيابى ..

وفى ٧ فبراير صدر مرسوم الخديوى بدستور ١٨٨٢ ..

ولكن فرنسا وانجلترا تآمرتا على هذا الدستور ، وعلى سيادة واستقلال هذه البلاد ، فارسلتا فى ٧ يناير مذكرة مشتركة الى الخديوى تحرضه على الاحتفاظ بحقوقه قبل الدستور ، وانهما يتعهدان بمساعدته ازاء اى قلاقل تحدث نتيجة لذلك . ولا جدال أن هذه المذكرة كانت افتياتا على ارادة الشعب ونوعا من الاهانة له ، ولكن شريف باشا أراد أن يتفادى الازمة . وكانت النقطة الشائكة هى حق المجلس فى مناقشة الميزانية فارتأى أن يرجىء المجلس اتخاذ قراره بالنسبة لهذه النقطة .

وفى رأى الاستاذ عبد الرحمن الرافعى أن العامل الذى ادى الى تعقد الامور هو طموح محمود سامى البارودى وزير الحربية الى رأسة الوزارة ، اذ زين لعرابى وفريقه رفض وجهة نظر شريف باشا وادى هذا ، كما رسمه الى سقوط وزارة شريف والى تعيين البارودى رئيسا لوزارة الثورة ، كما اطلق عليها عبد الرحمن فهمى ، وهى الوزارة التى اصدرت الدستور وفى الوقت نفسه التى حدثت فى عهدها الاحداث هزيمة التل الكبير .. واستشهاد الدستور فيمن استشهد على ارضها .

وكان دستور ١٨٨٢ يضم ٥٣ مادة ، وهو يماثل الى حد كبير دستور ١٨٧٩ .

خاتمة

علاقة الاسلام بسيادة الشعب

مر مائتا عام على احداث هذا الكتاب ، آخر العهد بالمماليك. وما تلا ذلك من غزو الحملة الفرنسية ، ثم ظهور محمد على ، وحكم أسرته وقومة عرابى التى اسفرت عن الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ التى ينتهى عندها موضوع الكتاب واستعراضه لأثر الاسلام على تطور السياسة المصرية ، ولكننا فى الخاتمة التى نضمها هـذا اليوم من شهر أكتوبر عام ١٩٩١ سنصل ما توقف الكتاب عنده بانقلاب ٢٣ يوليو وهزيمة الايام الستة فى عام ٦٧ ، التى هيمنت على السياسة المصرية ولم تنجح حزب رمضان فى ان تذهب مرارتها ، أو تمحى وصمتها .

ما أجدرنا بتأمل هذه الحقبة ، الحافلة بالاحداث والدروس. ونتقصى الاسباب التى اثقلت خطونا بل جعلتنا ننتكس ، فلا نسير خطوة حتى نعود إلى الوراء خطوتين ..

كانت الفترة الاولى فى هذه المسيرة هى أكثرها نجاحا . فقد تزعم شيوخ القاهرة الثورة على نابليون وعلى كليبر بمجرد ان سنحت الفرصة لذلك ثم قاموا بعزل الوالى التركى المعين من قبل السلطان / الخليفة .. وولوا محمد على والبسوه خلعة الولاية على أساس ان يحكم بالشريعة والعدل ، والاقلاع عن المظالم ،

---

(١) كتبت لهذا الكتاب خاصة .

والا يفعل أمرا الا بمشورتهم ، وانه متى خالف الشروط عزلوه . .
هذا هو « الماجنا كارتا » المصرى . . الذى كان يمكن أن يكون فجر الحياة الدستورية الديمقراطية . .

ولكن محمد على كان عسكريا ، أجنبيا ، عازفا عن الاسلام ، وهذه موبقات ثلاث ابعدته عن الشعب فلم يفكر فى الاستعانة بالمصريين فى المناصب الادارية والقيادة العسكرية ، ولم يفكر فى اصلاح الازهر وتطعيمه بالعلوم الحديثة . ووقف ضد الشعب ، ضد العلماء ، ضد الاسلام ، ضد الحكم الشورى وأصبحت عبقريته عبقرية شريرة . . وعندما تألبت عليه الدول لم يجد الشعب الذى يرتكز عليه فى مقاومة الدول فتهاوت امبراطوريته .

ولم يكن فى أى واحد من أبنائه نبوغه ، فابراهيم الذى كان يدخره للشدائد ، وكان عبقرية عسكرية ، مات قبله . ولم يكن فى سعيد أو اسماعيل أو توفيق حتى فاروق شىء من مقومات الحكم الصالح وأولها أن الحكم رسالة وخدمة مقدسة وما يوجبه ذلك من حب الشعب ، أو ايمان بقيمه أو قبول للشورى فكان حكمهم سلسلة من الاستخذاء أمام الاجانب والاستئساد أمام الشعب ، والعمل للاثراء والاستحواذ على الاموال حتى اسلموا البلاد للاحتلال البريطانى وفى النهاية اقتلعهم انقلاب ٢٣ يوليو ، الذى ادى — بدوره — الى هزيمة ٦٧ ! .

فالمشكلة لم تكن مشكلة حكم اسرة محمد على . المشكلة كانت ان التطور السياسى للمجتمع المصرى اعوزه « الاساس » أو « المحور » أو « النظرية » أو « البوصلة » . افتقد بلغتنا

كاسلاميين العقيدة ، التى تبلور العمل وتهدى سيره وتحميه من الانحراف والاخطار ..

ولم يكن ثمة عقيدة ، وفى نظرنا فلن يكون بالنسبة لهذه البلاد الا الاسلام ، فهو نهاية المسيرة الدينية الطويلة للمجتمع المصرى من ازيس حتى الاسلام . وقد كانت الفترة الوحيدة التى توفرت للقيادة السياسية هذه العقيدة ، وهى الفترة الوحيدة التى ابتت نجاحا وتوفيقا هى المرحلة الاولى التى تولى فيها شيوخ الازهر قيادة الشعب ، ومقاومة المماليك والفرنسيين والاتراك حتى تولية محمد على الذى خدع الشيوخ بتعهده الحكم بالعدل والشورى والاقلاع عن المظالم ، ولم يكد يتمكن حتى كان أول شىء صنعه هو القضاء على قيادة الشيوخ ، واقصاء الاسلام من محور الحكم ، الى رف مترب بعيد ، فى المساجد والزوايا والتكايا ..

****

كانت الشخصيات الثلاث التى هيمنت على المسيرة السياسية للمجتمع المصرى من اواخر المماليك حتى الآن ، والتى تعد مسئولة عما انتهت اليه هى : محمد على ، واحمد عرابى ، وجمال عبد الناصر واقترن كل واحد منهم بهزيمة عسكرية هى نافارين ، والتل الكبير ، وسيناء « حرب الايام الستة » ولم تكن هذه الهزائم هى « السبب » ولكنها « النتيجة » نتيجة الحكم الفردى ، وان انسحبت آثار كل هزيمة على جيلين أو ثلاثة بعدها . كانت عقابا الهيا لطغيان هؤلاء القادة ، او انها كانت « مقاصة » تاريخية يدفعون فيها — ومن ورائهم الشعب المنكوب — ثمنها .

لقد اشرنا الى محمد على اكثر من مرة ، لانه رائد الانحراف والحكم الفردى . ولأن فى البكباشى جمال عبد الناصر وجوه شبه كبيرة للبكباشى محمد على .. وما يمكن أن نضيفه هنا هو أن مفتاح شخصية محمد على كان الطموح . والطموح هو القوة الدافعة لكل جلائل الاعمال وعظائم النهضات . ولكنه ، بالنسبة للقسادة — لابد أن يقوم على قاعدة — ولابد أن تشترك فيه مجموعات ، فاذا لم يكن له قاعدة او مشاركة فانه يتمحور حول الفرد ، ويستبد به ، ويصبح كانه المقصود من الآية ((**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ، فهو له قرين**)) فمن يغفل القيم لا يعد أمامه الا شيطان الذات .. وفى سبيل هذه الذات يضحى بكل شيء . وعندما اريد من الشيخ محمد عبده أن يكتب مقالا يحيى فيه محمد على لمناسبة ذكرى مرور مائة عام على حضوره مصر ، كتب مقالا لم يدع فيه منقصة الا والصقها بمحمد على .. وكان أبرز ما عابه عليه انه لم يدع رأسا يمكن أن يرتفع الا ضربه ! ، وانه اساء الى كل من احسن اليه ، وانه فتت كل الهيئات السابقة عليه .

ذلك أن الطموح الفردى عندما يتملك الحاكم فان سياسته — وقد حرم العقيدة وحرم المشاركة الشعبية — تقوم على التآمر والبطش والاصطناع وينطبق عليه فى النهاية ((اساء فى كل ما احسن ، واحسن فى كل ما اساء)) (١) .. لأن اساءته لا تجد كابحا ، أو ناصحا . ولأن حسناته يشينها سوء التطبيق بحكم المناخ الديكتاتوري ، الارهابى ..

---

(١) هذا عنوان الفصل الحادى عشر من كتابنا ((الاسلام هو الحل)) الذى اردنا به تقييم عمل عبد الناصر .

وكان الشيء الوحيد الذى ينقذ محمد علي من صفتيه كعسكرى واجنبى هو الاسلام ، فقد تقبله شيوخ القاهرة كعسكرى .. والباقى على ان يحكم بالعدل الاسلامى .. ولو حكم بذلك لتقبله الشعب .. ولكنه كان عازفا عن الاسلام ، فابتعد عن الشعب واتجه الى الاتراك والالبان يوليهم المناصب ، كما اتجه الى فرنسا ليستمد المعرفة ، واستسلم لطموحه وتآمره وجاءت نهايته مع « نافارين » ..

واحمد عرابى هو اقل الثلاثة مسئولية رغم ان هزيمة التل الكبير جثمت على البلاد اكثر من غيرها . وسوءته تأتى من الضعف والخطأ ، وليس من التآمر والشر . وقد كان رجلا طيبا — فلاحا حقيقيا ، مسلما بفطرته ، يرى نفسه حسيبا على الاسلام ، وان لم يدع مظاهره . ودرس فى الازهر حينا ، ولم يكن الذى يثيره هو الطموح الفردى — حتى وان وجد فيه — لأن فخره الاعظم وزهوه كان ان يصبح صوت الشعب فى المطالبة بالدستور وان يتقدم الجنود ، والاعيان والاحرار فى ذلك اليوم المشهود — يوم عابدين « ٩ سبتمبر ١٨٨١ » فيطالب الخديوى بالدستور وكان عليه ان يتصدى لمقاومة سلطانه ، ولمؤامرات انجلترا وفرنسا فى وقت فقدت فيه الحركة الوطنية باعثها الاول — جمال الدين الافغانى — الذى ابعده الخديوى الاخرق . ولو كان موجودا ، لكان من المحتمل ان لا تقوم الحركة العرابية .. او ان لا تأخذ المسار الذى اخذته .. كانت الاحداث اكبر من عرابى وهزم ضحية للخيانة ، والخديعة والغفلة ، فى التل الكبير ..

وتصل المأساة الى قمتها فى جمال عبد الناصر الذى كان

يرجى منه كل الخير .. فأوقع البلاد في نكسة أسوأ من أى نكسة سابقة ، والحق بها هزيمة لا تقل آثارها من آثار هزيمة التل الكبير ، وربما تماثل آثار هزيمة مرج دابق ، أو اكتيوم (١) .

في جمال عبد الناصر نرى الطموح الفردي وهو يدمر حركته تدميرا ويقضي على نفسه ، وبلاده رغم البداية الباهرة التى كان يمكن أن تحقق الآمال فقد قضى على حكم فاسد ، كرهه الناس ، نحقق احد اماني الشعب ، وكان يرتكز على اقوى قاعدة شعبية في البلاد — على الاخوان المسلمين — ، ولكنه لما كان في صميم نفسه عازفا عن الاسلام .. فقد قطع جسوره بالشعب . فلم يكن الا ضابطا قاد « مؤآمرة » عسكرية سرية ، ونجح ، بمباركة قاعدته ، والشعب في اقتلاع الحكم الفاسد ، وكان هذا أمرا يمكن ان يحققه بنجاح ، ولكنه ما كان يمكن ابدا ان يقيم حكما ، لانه ضابط عسكرى لم يمارس حياة سياسية عامة ، ولم تكن له قاعدة جماهيرية ، وحتى كضابط ، فانه احتاج الى « واجهة » محمد نجيب التى جعلت بقية فرق الجيش تقبل الانقلاب . لأن محمد نجيب « لواء » محبوب ومعروف في كل الجيش والرئيس المنتخب لنادى الضباط ، وليس بكباشيا نكرة يوجد مثله مئات في الجيش ، امام هذه الحقائق كان على عبد الناصر أن يتعاون مع قاعدته ، وان يتغلب على الصعوبات التى يقال انه واجهها امام نسلهية

---

(١) مرج دابق : هزيمة الغورى أمام السلطان سليم سنة ١٥١٧ التى ادت الى حكم العثمانيين — واكتيوم ٣٠ سنة قبل الميلاد هزيمة « كليوباترا » أمام اغسطس التى ادت الى حكم الرومان ٧٠٠ سنة ! »

المرشد .. ولكنه اغتر بالسلطة . وما كان يمكن وهو الضابط العسكرى الذى يطلب الطاعة أولا أن يتحول الى حاكم ينزل على ارادة الشعب .. وكان من حظه « سوئه أو حسنه » أن فقدت الاخــوان الامام البنــا الذى لو كان موجودا لما اخــذت حركة عبد الناصر الشكل الذى اخذته ، أو حتى لو أخذته لما اخذ تجاوب الاخوان أو تجاوب عبد الناصر ما أخذه ..

اننا فى تحميلنا لعبد الناصر مســئولية التحول المشــئوم لا ننجى قادة الاخوان من نصيب منها ، ولكن يظل المسئول الاول هو عبد الناصر ..

ولما قطع علاقاته بالاخوان سنة ١٩٥٤ اطلق لطموحه العنان فاوقع بكل الذين احسنوا اليه أو تعاونوا معه . وفتت كل الهيئات بما فى ذلك الاخوان ، ثم رفع شعاره « ارفع راسك يا أخى » ليضرب كل رأس تجرؤ على الارتفاع ووضع دستورا هو « عرة الدســاتير » أخسر الشــعب الحــقوق التى اخــذها بحــكم دســتور ١٨٧٩ ولــوث يديه وحكمــه بوصــمة لم تعرفها مصر قبله ، وصمة التعذيب ، فلم يكن لدى محمد على وهو المشغول المهموم ببناء امبراطوريته وقت أو فكر ينصرف لتعذيب اعدائه ، فقد كان يتخلص منهم بالقتل ، أو النفى الى السودان . ولهذا فانه رغم هزيمة نافارين ترك مصر سيدة النيــل من منبعه الى مصبه . أما جمال عبد الناصر فانه أوجد مجموعة من حثالة الناس والانذال ، والمصابين بالشذوذ الجنسى ، وأطلق لهم العنان فى تعــذيب عشرات الالوف من اكرم ابنــاء هذا الوطن ، من الشيوعيين ، ومن الاخوان ، ومن احرار الفــكر ، من المحــامين والقضاة ، بل ومن الضباط الذين اعانوه قبل حركته ، وبعدها .. وكانت فكرته فى هذا هو أن يثير الرعب ويبث الخوف فى الشعب.

فلا يجرؤ احد على معارضته وانه يجعله ينفرد بعملية التضليل والتزييف بحيث لا توجد مجلة ، أو صحيفة أو اذاعة . او حتى صوت تكشف الحقيقة . وقد نجح فى هذين — اشاعة الخوف ، وتزييف الحقائق وكان أكبر دليل على ذلك انه عندما مات بعد الهزيمة المخزية سار وراء جنازته قرابة مليون من الأحداث والمخدوعين والمضللين ..

فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان ذم الورى .

أن ما يثير الاسى فى عبد الناصر انه كان مهيئا للنجاح ، وأن عديدا من الفرص لم تسنح لغيره سنحت له ، وقد استقبلته الجموع فى سوريا استقبالا اسطوريا ولكنه كان يضيع الفرص .. ويهدرها ، كما لو كان بينه وبين التوفيق عداوة ! فاما انه يخطىء التقدير ، او ان يكل القضية الى مشيره العقيم ، الذى اثبت الفشل فى ٥٦ ، وفى سوريا وفى اليمن ، والذى اصبح بيته وكرا من أوكار الفساد . وكان يمكن لعبد الناصر أن يوحد العرب تحت لواء الاسلام ، ولكنه ادعى « القومية العربية » واخذ يتآمر على النظم الحاكمة ويبتذل الحديث ابتذالا سوقيا فى خطاباته العامة عنها .. وما كان لقومية أن تصبح أداة وحدة ، فالقومية هى « الانانيـة بالجملة » وكان يمكن أن يترك العرب ويستريح منهم ويتجه لافريقيا فيكسب دولا ، ويضمن لمصر عمقا ، ولكنه ابعد عنه ، حتى السودان . وظن انه يستطيع أن ينتصر فى الخارج بالوسائل التى استخدمها فى الداخل التآمر ، وشراء الذمم وتزييف الحقائق فأقام سوقا دولية لذلك .. اهدر عليها جزءا كبيرا من ثروة البلاد ... دون أن يحقق طائلا ..

وعندما مات ، ترك اليهود على مرمى حجر من القاهرة واخضر مصر بسيناء والضفة الغربية وغزة ، واوقع بالجيش المصرى مهانة لم تسبق ، ومرغ شرفه فى الطين ، واستسلم للسوفييت تماما وأذل الشعب وتركه حسيرا مقهورا .

فاذا قيل .. والمصانع والسد العالى وزيوف « مكاسب العمال » إلى آخر هذا النعيق ، فنحن نقول أن محمد على واسماعيل فعلا مثل ذلك . وليس المهم هو المنشآت ، ولكن كرامة الشعب. وكرامة الشعب اهدرها فى الداخل والخارج كما لم يحدث من قبل. والمهم هو تراب الوطن ، وقد اسلم ثلث هذا التراب الى اسرائيل ولا يمكن لأى مصرى ان يغتفر هذا أو ذاك أو يتسامح فيهما .

* * *

السؤال الذى لم يتسع له حتى المقالات التى نشرت فى الدعوى ، وكانت استعراضا للتاريخ ، اكثر مما كانت تأصيلا للفكر. **هو كيف يمكن للاسلام ان يعمل لسيادة الشعب ولاقامة حكم نيابى ودستور ديمقراطى .. اليس ذلك غريبا عن الاسلام ؟ . وهل لا نجد سبيلا آخر غير الاسلام ؟ ..**

والرد هو أن العالم الاوروبى حتى الآن لم يعرف نظاما للحكم يشذ عن الديمقراطية ، أو الديكتاتورية . والديمقراطية هى النظم المطبقة فى بريطانيا والولايات المتحدة وما يجرى مجراها . والديكتاتورية تتمثل فى الفاشية ، والنازية والماركسية . **والديكتاتورية مستبعدة من الجميع ، فلم يبق الا الديمقراطية فى** صورتها الليبرالية الاوروبية وهذه الديمقراطية تقوم على الفرد ، وتستهدف الربح « أو المصلحة » وتعمل فى مناخ من الحرية ، وبهذا التكييف فانها تحقق كل ما فى الحريات من خير ، وكسب ، وتقدم . ولكن الديمقراطية تسمح لهذه الحرية بأن يستغل القوى الضعيف ، الغنى الفقير . وتسمح بصور من التبذير والضياع والسفه ، ولا مناص لديها من ان يكون الحكم هدفا لكل حزب وبالتالى يكون مغنما ، وتتصارع الاحزاب على الحكم كما تتصارع

الشركات على الربح ، فاما أن تفرض عليهم المنافسة صورا من التعسفات أو أن ينتهوا الى الاتفاق على حساب المستهلك اقتصاديا والمواطن سياسيا .. وهذا فى اجمالة ثمن فادح يكون على الديمقراطية أن تدفعه ، والدول المتقدمة التى كونت نفسها اقتصاديا بنهب العالم القديم وحققت تراكمها الراسمالى ، ومرنت خلال ترنين من الزمان على ممارسة الديمقراطية ، وتكييف اوضاعها ونظمها طبقا لها تنوء بهذا الثمن ، وتبوء باوزاره فما بالك بالدول الفقيرة الخارجة من اسار الاستعمار ..

وبالاضافة ، فان هذه الدول الاوروبية لم يقم الدين فى حياتها السياسية بدور رشيد فى يوم من الايام وكانت تجربتها مع الكنيسة والبابوات منفرة ، فلم يكن امامها بديل ..

والامر نقيض ذلك فى مصر ، بوجه خاص ، والدول العربية بوجه عام . فهذه الدول كان الدين فيها هو اعرق واقوى المقومات من اقدم العصور ، وعليه ارتفعت النظم السياسية ومنه انبثقت الفنون والآداب ...

والاسلام بالذات يقدم لنا اصولا سياسية نظرية تضمنها القرآن الكريم ، وهى فى اجمالها تجعل هدف الحكم هو العدل ووسيلته هى الشورى ، فضلا عما أرساه من مبادىء الكرامة الانسانية وحرية الاعتقاد .. الخ . وللاسلام بالفعل مساهمة عملية فى هذا المجال هى الخلافة الراشدة التى عاشت ثلاثين عاما ..

وهناك فرق بين الاسلام وبين الديمقراطية التى تسمح بالعبث أو الفوضى أو الاستغلال والديكتاتورية التى تودى

بالحرية وتفرض الطاعة .. ان الاسلام كنظام سياسي هو حكم القانون . والقانون هو القرآن ، وفى القرآن افضل ما فى المثل السياسية التى طبقت بالفعل أيام الخلافة الراشدة ، ويمكن أيضا ان تطبق اليوم . وليس شرطا لذلك ان نتمسك « بمرقعة عمر » أو درته أو ان نتمسك بأن يكون الحكم بمقتضى الصورة القديمة للبيعة ، المهم ان يمارس بطريقة الشورى وان يستلهم القيم الاسلامية القرآنية .

فالاسلام يحقق سيادة الشعب أكثر من الديمقراطية التى تدعى ذلك ثم لا تنتهى الا الى سيادة الاغنياء والاقوياء ، وبالاكثر « الاغلبية » ، ولكن الاسلام يضع قانونا يجعل العدل هو الهدف والعدل هو ارادة الشعوب والمحكومين ، لانه الوحيد الذى يسعهم جميعا ، ولأن ما يشذ عنه يدخل الى باب الظلم ، ولا يريد أحد لهذا الباب ان يفتح ..

والسيادة الحقيقية للشعب تتجلى فى حكم القانون الذى يؤمن به الشعب . فهذا القانون هو عصمة الشعوب من تزييف ارادتها اما عن طريق الحاكم الذى فى يده سلطة الاعلام أو عن طريق « الرأسماليين » والفئات المميزة التى تركب الشعوب ! بينما ترفع عقيدتها بسيادة الشعب ، وما صيحة الشعب المعلم .. الشعب القائد الخ ... عنا ببعيد .

فالاسلام يرسى سيادة الشعب لأن غاية الحكم فيه هى العدالة ، ولأن وسيلته هى الشورى وهما غاية ووسيلة الشعب، ثم هناك ما يفرضه القرآن من حماية للحقوق الاقليات أن تعصف بها الاغلبية ، ولا يعد هذا قيدا على سيادة الشعب ، لأن سيادة الشعب لو سمحت بظلم غيرها ، فيمكن أن ينسحب هذا

الظلم عليها . وهناك حملية هذه الاغلبية من أن يزيف الحكام ارادتها ، فاذا ادعى النظام الحاكم ان الشعب يمنح الحاكم سلطات مطلقة ، أو ان يطبق ما يسمونه «الشرعية الثورية» ، فهذه ليست ارادة الشعب ، ولكنها ارادة الحاكم سلك اليها طريق خداع لفيف من حاشيته أو فريق من اتباعه حتى دعوا اليها باعتبارهم ممثلين الشعب . والشعب من هذه براء ، ولكنه لا يستطيع شيئا امام «الحبكة» الدستورية — الحزبية .. الخ . ولو طبق الإسلام لما قبلت هذه الدعوى لانها تخالف الاصول التى وضعها القرآن للحكم غاية ووسيلة ..

والاسلام هو دين ، أى إنه يؤثر على القلوب والضمائر فيصل الى ما لا تصل اليه النظم الحاكمة ، أو اغراء السلطان ، وايمان الشعب به ثروة لا تقدر بمال .. وتتقطع دونها اعناق الحكام وهيهات ان تبلغها النظم .

فهذه كلها توضح لنا اى اصل عظيم اضعناه ، ثم ذهبنا نتسول النظم ونتسوق الدساتير ، ثم لا نصل الا الى تلفيقة .

* * *

فاذا قالوا .. انهم لا يعرضون الاسلام هكذا فنحن نقول أن الاسلام ليس ملكا للمؤسسة الدينية ولا هو حكر لجماعات الرافضة الجديدة . ولا يجوز لهؤلاء أو لاولئك أن يتحدثوا عن الاسلام . فالاسلام هو القرآن الكريم وهو السنة الثابتة والمتفقة مع القرآن ، وهو الممارسات الرشيدة للخلفاء الراشدين . وليست هى الغازا ، فالقرآن بين ايديكم والسنة ليست بعيدة عنكم والتاريخ مثبت فى الكتب .. ولديكم عقول . ففيم تحتارون ولم تمنعون انفسكم حقها ..؟ وقد قال الله تعالى — اربع مرات لا مرة واحدة — «**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**» ..

فهرست

بقلم المؤلف

(أ) مؤلفات

ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد ١٩٤٥
ديمقراطية جديدة ١٩٤٦
على هامش المفاوضات ١٩٤٧
مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها
القرآن الكريم ١٩٥٢
ترشيد النهضة « صودر قبل التوزيع » ١٩٥٢
الازمة والبطالة فى الراسمالية ١٩٥٣
موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة .. ١٩٥٧
دور المنظم فى الحركة النقابية ١٩٥٧
قصة فرسان العمل ١٩٦٢
القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى ١٩٦٣
التنظيم والبنيان النقابى « ثلاث طبعات » ١٩٦٦
فى التاريخ النقابى المقارن ـ طبعتان ١٩٦٧
دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى ١٩٦٧
مسئولية القيادات النقابية ملحق مجلة العمل العدد ٣٦ سنة ١٩٦٧
الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها ١٩٦٩
منظمة العمل الدولية ـ ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة ١٩٦٩
الحركة العمالية الدولية ـ ملحق العمل العدد ٧٢ سنة ١٩٧٠
العمل فى الاسلام ـ ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة ١٩٧١
محاضرات فى الادارة النقابية ١٩٧٢

ب) كتب الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل

خلال الفترة من (١٩٨١) حتى الآن (١٩٩١) كتب الاستاذ جمال البنا للاتحاد الكتب الآتية :

الازمة النقـابية .

الاسلام والحركة النقابية .

الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل (كتيب تعريفى) .

الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل يبدأ المسيرة .

رسـالة الاسـلام

اخت الصـلاة المهجورة .

الحركة النقابية من منطلق اسلامى .

الخيـار الصـعب .

الحساسية الدينية (وجيز) .

نظم الثقافة العمالية فى الوطن العربى .

وجوه الائتلاف والاختلاف بين الراسمالية والشيوعية والاسلام .

الدولة المصـرية .

رؤية لمضمون الحكم بالقرآن .

محكمة العدل الدولية الاسلامية .

الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل فى عامين .

العـودة الى القـرآن

لا حرج (قضية التيسير فى الاسلام) .

نحـن ودعـوتنا .

لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية فى الاسلام)

العهـــــد

الشورى فى الادارة .

الحركة العمالية الدولية (وسيط) .

عمال السودان والسياسة (مع آخرين) .

الحرية النقابية ثلاثة أجزاء .

نحو حركة نقابية مثقفة .

(ج) مترجمات ومراجعات

النقابات فى الولايات المتحدة ١٩٦٢

النقابات فى المملكة المتحدة ١٩٦٢

النقابات فى الاتحاد السوفيتى ١٩٦٢

النقابات فى السويد ١٩٦٢

النقابات فى بورما ١٩٦٣

النقابات فى الملايو ١٩٦٣

الازمة المقبلة ١٩٦٣

العمالة والتنمية الاقتصادية ١٩٦٦

مدخل لدراسة الاجور ١٩٦٦

الادارة العمالية فى يوجوسلافيا ١٩٦٧

العمال يجابهون عصرا جديداً ١٩٦٨

الديمقراطية النقابية ١٩٦٩

دستور منظمة العمل الدولية ١٩٧٠

اتفاقيات العمل الدولية فى « مجلدين » ١٩٧١

توصيات العمل الدولية ١٩٧١

البرنامج العالمى للعمالة ١٩٧١

وكل هذه الكتب باستثناء الديمقراطية النقابية والازمة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية .

هذا الكتاب

يثبت هذا الكتاب بمنطق الوقائع واعمال الفكر ان الفكر السياسى للاسلام يؤدى الى سيادة الشعب أكثر مما يمكن ان تؤدى اليه الديمقراطية التى تقرن به عادة . لان الديمقراطية تسمح — بحكم قيامها على الحرية الطليقة بهيمنة الاغلبية علا الاقلية ، الاقوياء على الضعفاء ، الاغنياء على الفقراء . فى حين ان الاسلام يضع ضمانات لهذه الفئات المغلوبة على أمرها من منطلق العدل الذى هو أصل السياسة الاسلامية والمحور الذى يدور عليه ((واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل)) .

ويبرز الكتاب كيف ان شيوخ القاهرة أرسوا سيادة الشعب عندما خلعوا والى السلطان وعينوا محله محمد على على ان يحكم بالشرع والعدل وان خالف ذلك عزلوه . كما يظهر الكتاب كيف ان دعوة جمال الدين الافغانى دفعت الشعب للحصول على دستور ١٨٧٩ .

ويتقصى الكتاب ((قصة الدستور المصرى)) من ديوان نابليون حتى دستور ١٨٨٢ .

والكتاب اصلا مجموعة مقالات نشرتها للمؤلف مجلة الدعوة عامى ٥٢ و٥٣ واعاد طبعها واضاف اليها بعض الفصول .

دار الفكر الاسلامى